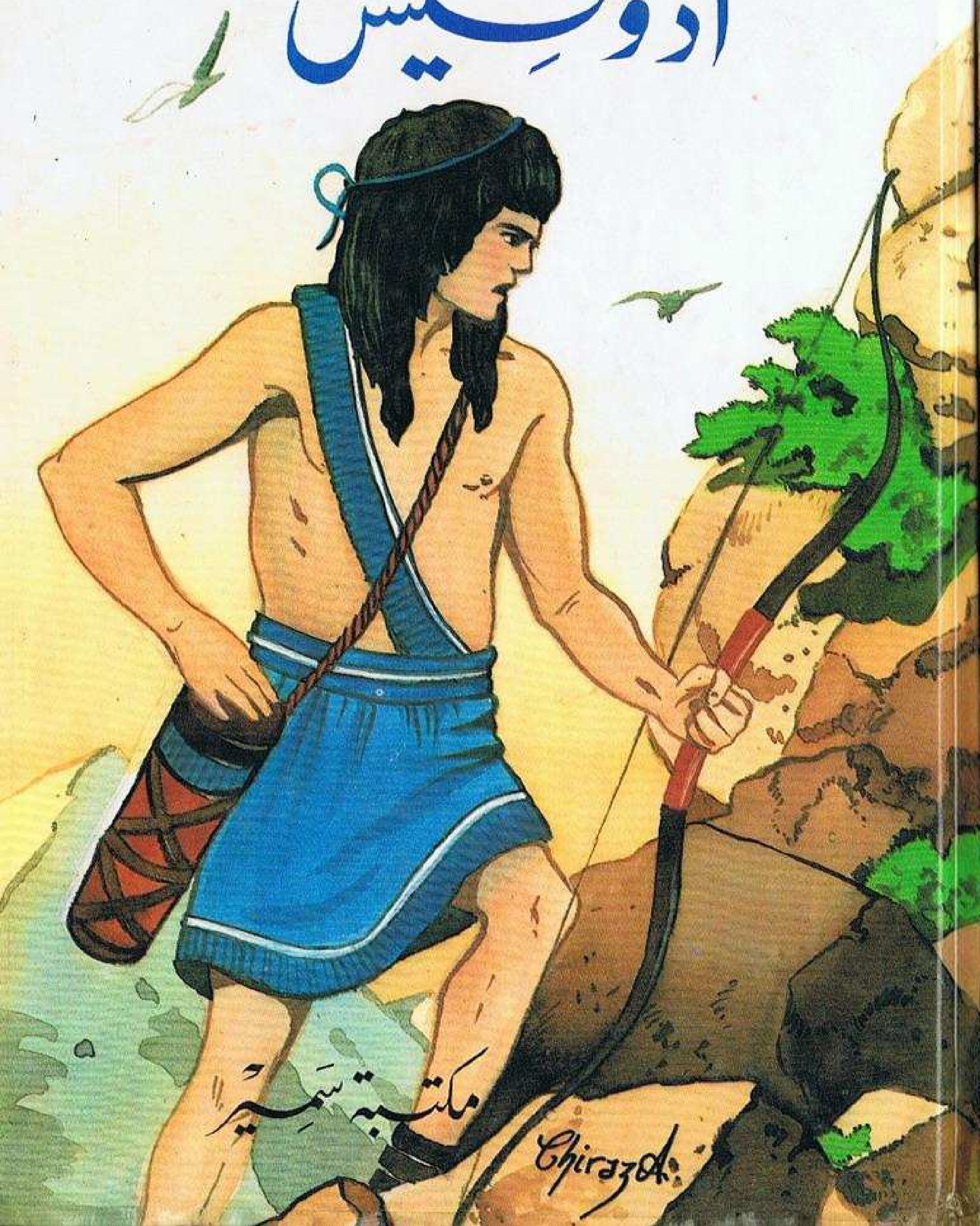
سلسلة «من بحر الزمن»

أدونيس



سلسلة «من بحر الزمن»
أدونيس
مكتبة سمير

ـ اِرحمني، يا زفس. أنتَ الوحيد الذي في إمكانه أن يؤثّر على قلب عشتروت.

ـ نظَرْتُ في أمْرِك، يا ابنة سنيراسَ، وطلبتُ من الربّةِ أن ترأف بكِ، فرضيتْ أن تُحوِّلكِ كائنًا ليس حيًّا ولا ميتًا.

ـ إلى شجرة؟ يا لَهولِ ما أسمع! ماذا يحلّ بي إن عصيتُ أوامرها؟

ـ لن تستطيعي، فمنذ الآن تسيرين مدفوعة بقوّة خَفيّة، من دون أن يقوى أحد على مساعدتكِ.

ـ أنتَ...

ـ كلّا. أنا عاجز...

ـ ولٰكنّني...

ـ أعرف ذٰلك، فعندما تتمّ أيّامُكِ سيَخرج الوليد من جذعكِ.

ـ ومَنْ...؟

ـ ستهتمّ به حوريّات الأشجار.

ـ لن أرى ولدي!

ـ بل ستَرَيْنه وتفرحين به.

سِلْسِلَةُ « مِنْ بَحْرِ الزَّمَن »

إشراف الدكتور جوزيف أبو نجم

صَدَرَ مِنْها حَتّى الآن :

١ ـ خالِد بن الوليد .

٢ ـ صلاح الدين الأَيّوبيّ .

٣ ـ أَدونيس .

٤ ـ دَمْعَةُ الأَميرِ .

جوزف اليان

أدونيس

١

زال الخلاء وانتظمت العناصرُ وسارت الكواكب في مداراتِها ، وتكـوّنـت اليـابسـةُ وانفصلـت عـن الهواء واتّخذت لها شكلًا .

وارتفعت على سطحِها الجبالُ ، وانخفضت الوديان ، وانبسطت السُّهول ، وتحدّدت الصحارى ، وانحسَر القمر في المحيطات والبحار ، ونبتت الجزرُ فيها كأزهار بخور مريم .

★ ★ ★

كان هٰذا في الزمن القديم ، منذُ آلاف الأجيال .

★ ★ ★

ونبتتِ الأشجارُ والأعشاب ، وغطّت الغاباتُ الجبالَ

وأهِلتْها الحيوانات على أنوعها .

وكان ليلٌ وكان نهار ، وإذا بالإنسان يمرعُ في الفردوس الأرضيّ ، لا يعرف الألمَ والموت .

وذات يومٍ ، تنكّرَ للخالِق العظيم وعصى أوامرَهُ ، فأخرجه الله عقابًا له من الفردوس .

★ ★ ★

وكرّت الدهور والإنسانُ يعيش تائهًا في الغابات والبراري ، يقتات من أعشاب الأرض وأثمار الأشجار .

★ ★ ★

وأشفقت الآلهة على الإنسان ، وانحدرت من علياء سمائها إلى أرض البشر ، وراحت تعلّمه الصناعات والفنون ، وشغلَ الأدوات من الحجر والخشب والحديد والنحاس .

★ ★ ★

حدث ذلك منذ آلاف السنين .

وذات مساء دعا زفس ، ربُّ الأرباب ، الآلهة إلى عقد مجمع ليختار كلٌّ منهم مسكنه . فكانت الصينُ والهند

لإلٰهة الحكمة ، وروما لإلٰهة المجد ، واليونان لإلٰهة الفلسفة والحرب ، ولبنان لإلٰهة الحبّ والجمال والخير والخصب والمعرفة عشتروت .

واختارَت عشتروتُ الإقامة في قبرص .

كانت تسير في سُبلِ جزيرة بافوس ، وتنتقل فوق تلالها الضاحكة ، وفي وديانها الظليلة ، وعلى رمال شطآنها الدافئة ، تدفع الشتاءَ وتسترجع الربيع ، ضاحكةً من سذاجة الإنسان يرى تبدُّل النبات بين فصل وآخر ، من دون أنْ يُدركَ الرابط بينهما .

★ ★ ★

وغالبًا ما كانت عشتروت ، ربّة الجمال والخصب ، تقود عربتها السّماويّة التي تجرّها الحمائم البيضاء ، وتنتقل على متنها من نجمة إلى أخرى ، ترصد أعمال البشر ، والآلهة والأرباب والربّات .

★ ★ ★

وذات مساء مَشُوب بالطيوب ، امتطَتْ عربتَها الورديّة وطارت بها الحمائم البيضاء .

وراح النسيم يتلاعب بردائها الشفّاف، فبدت كالغمامة تسبح في الفضاء الفسيح.

وتوقّفتْ على كوكب الزُّهَرة. وما إن استوت على عربتها، حتى لفَتَ نظرها شابٌّ وسيم الطلعة، مفتول العضل، عريض المنكبين، وَرْديُّ الثغر، يتمشّى في أحراجِ بافوس.

«مَن هو هذا الإله؟

مَن أخفاه عن ناظريَّ؟

لا شكّ في أنّها برسيفون.

سمعتُ مرّةً اسمه يتردّد على ألسنة الربّاب: بيغماليون! إنّه فنّان غريب الأطوار، لم يعرف الحبُّ طريقًا إلى قلبه، ولم تَحْلُ في عينيه امرأةٌ مهما سمتْ محاسنها.

وقد عجز الإله كوبيدون، على رغم جهودٍ بذلها وحِيَلٍ استنبطها عن أن يصيب قلبه بسهم واحد!»

لبستْ عشتروت جسدها الإنسانيّ، وانحدرت من

كوكبها وبرزت لبيغماليون في أبهى حُلَلِها، ورمَتْه بنظرة ناريّة آضطرب لها كيانُه.

وتولّد فيه شوقٌ مُبَرِّح، وتسارعت دقّات قلبه، وآستحوز عليه قلق مرير، وتولّاه عذاب شعر بمرارته في طوايا روحه.

ولمّا همَّ بالاقتراب من المرأة، غابت الرؤيا عن عينيه، وشعر بالفراغ يغمر ذاته.

★ ★ ★

وذات ليلةٍ أرق وتفكير، صاح: التمثال! سأنحت تمثالًا أجسّدُ فيه الجمالَ في أسمى معانيه.

★ ★ ★

ما عادت الصورة تبارح مخيّلتَه. تملّكتهُ وعصفت به، فكان كلَّ مساء ينظر إلى كوكب الزُّهرة ويجثو على ركبتيه ويصلّي قائلًا:

«يا عشتروت،

«يا ذات المحاسن،

«يا ربّة الجمال،

« يا مُولِّدة الفصول ومُفجِّرة المواهب، علّميني صنع الأدوات التي تعينني على تنفيذ الفكرة التي أوحيتِ بها إليَّ ».

وأشفقتْ عشتروت عليه. وذات مرّة سَمع همسًا كوشوشةِ النَّسيم.

- بيغماليون، اِصنع إزميلًا ومِطرقة.

* * *

ومضت الأيّام، وإذا به ينكبُّ على كتلة من الصخر لا شكل لها وتتوالى الضرباتُ ليل نهار، تارة عنيفةً قاسية، تنتزع من الصخر رقائق، وأخرى خفيفة هادئة تنثر منه شظايا.

اِنصبَّ على عمله بجدٍّ وثابرَ عليه بجهدٍ عنيد، لا يَكِلُّ ولا يسأم.

عاش بيغماليون في انخطاف دائم مع التمثال الذي رَسَمَه خياله.

اِنحصرت دنياه كلّها في الحجر، وربط به سعادته. لازم مشغلَه لا يبارحه، وارتهن نفسَه لإزميله ومِطرقته. طاردتْه الفكرة، وحرّك يديه ألمُ المخاض العسير.

واستولى عليه الشكّ في مَقدِرته على تحقيق حلمه. وكان يتساءل كلّ يوم: « ترى هل أنجح؟ » ولٰكنّه لم ييأسْ.

ومع الأيّام بدأت ملامح التمثال بالبروز، وتوالى الطَّرْق والتشذيب: هٰذا نُتوءٌ يجب تلطيفه، وذاك خطٌّ يجب أن يكون أقلَّ بُروزًا، وتلك قَسَمَةٌ لا تُطابِق النموذج...

كانت الأيّام تغيب سريعًا في بحر الزمن، وبيغماليون يُقوِّم ويَصْقل ويُجمِّل.

... وأخيرًا أنهى عمله وأخذ يتأمّل صنيعة يديه.

لم يصدِّق أنّه أوجد هٰذا الجَمال وجسَّده في حجر!

مَن هي هٰذه المرأة؟

هل لها مثيل بين النساء؟

تمجّدَتْ يدا الفنّان اللّتان شاركتا الخالق في الخلق!

* * *

وجثا بيغماليون أمام صنيعة يديه، وهتف: « أعطيتُكِ أيّتها الربّة جسدًا، فهل أستطيع أنْ أُعطيكِ روحًا؟ »

٢

في الربيع، حلَّ عيدُ عشتروت ربَّةِ الحبّ، فآرتَدَتْ قبرص أبهى حُلَلِها، وسارَ الناسُ زَرافاتٍ إلى هيكلها حيث كان يقف الكُهّان والكاهنات مُرتدينَ أفخر الملابس لتقبّل هدايا الشعب.

ولمّا تكاثَر الناس بحيث ضاق الهيكل وأَرْوقته بهم، دخل الكاهن الأكبر إلى قُدْس الأَقداس ورفع الرِّداء عن تمثال الربَّة، فظهرت مَحاسِنها التي لا مثيل لها بين البشر ولا بين الآلهة، وارتفعتْ هَمْهمة في صفوف الشعب، وتصاعدتْ دعوات وصلوات وأناشيدُ من الحناجر.

وأَشعلتِ الكاهنات البخور في المَجامِر حتّى عَبَقَ الهيكل برائحته الذكيّة إيذانًا بتقديم الذبيحة.

واقترب الكهانيمُ من المذبح العاجيّ بوقاره المعهود، وبَدَتِ القسوة والرصانة على تجاعيد وجهه، تزيده رهبةً وجلالًا لحيةٌ بيضاءُ حتّى أسفل الصدر، يُعاونه رَتْلٌ من كاهنات وكهّان. وأمسك بسكّين عاجيِّ المقبض تُزيِّنه الحجارة الكريمة، وذبحَ على بلاطة المذبح الرخاميّة زوجَين من الحمائم سالتْ دماؤهما في كأس ذهبيّة كبرى وامتزجت بخمرة قبرصيّة مُعتَّقة. ثمَّ رفع الكأس بين يديه وراح ينثر محتواها على قَدَمَي الربّة، وهو يضرع وينشد أناشيدَ التعظيم.

كان بيغماليون يحضر هٰذه الاحتفالاتِ ويُقابِل بين التمثال الذي نحتته أنامله وتمثال عشتروت مأخوذًا مُنخطِفًا. وبعدما انتهى لفيف الكهنة من إقامة المراسيم الدينيّة، انعقدت حلقات الرقص والغناء في باحة الهيكل وجواره.

وبقي بيغماليون وحيدًا يضرع ويصلّي بانكسار وخشوع عند قَدَمَي عشتروت:

«أرفع إليكِ يومَ عيدك هٰذا تضرُّعاتي،

« وأنا مؤمن كلّ الإيمان بقدرتك .

« أرفع يديَّ خاشعًا ، مُستحلفًا إيّاكِ في قُدْس أقداسكِ ، راجيًا أن تسمعي ندائي وصراخي إليكِ ، فلا تُشيحي بناظرَيْكِ عنّي .

« يا عشتروت البهيّة .

« يا من وُلدتِ من زَبَدِ البحر ، فاستعرْتِ من الأمواج قوّتها .

« يا جميلة ، يا مَن تهرب من مجدكِ الأمجاد ،

« يا مَن تصبح تحت قدمَيْكِ الأرضُ الموات خيرًا وخصبًا ، أطلب منكِ أن تُطلقي مِن نَفسكِ نَفَسَ الحياة والخلود في رخام التمثال الذي نحتُّ » .

★ ★ ★

وخرج بيغماليون من الهيكل ذاهلًا ، ونادته الفتيات :

« أيّها الفنّان ، تعال وارقص معنا .

« لقد خبّأنا لكَ أطيبَ الخمور .

« تعال اشرب نخبَ عشتروت ،

« يا عاشقَ الجمادِ ، ما بالُكَ لا تُجيب ؟

« أعَذْراؤكَ الرُّخاميّة التي مِن صُنْع يديكَ تنتظرك ؟

« يا عاشقَ التمثال ، تعال وافرح معنا ! »

★ ★ ★

وأكمل بيغماليون طريقه ، غارقًا في بحر من التفكير . وشعر بأنّ نبضات قلبه تُسرع ، وسُمِعَ لها في صدره دَوِيٌّ كَصَخب أمواج البحر .

وأخذ يهمس : هل سَمعتْ عشتروت ندائي ؟ هل حقّقتْ أُمنيّتي الوحيدة في الحياة ؟ أيُّ عذاب هو عذابي ! وأيُّ شَقاء هو شقائي ! أيُعقَل أن تدبَّ الحياة في حجر ؟

★ ★ ★

وولَجَ بابَ مُحْتَرَفِه ، وكاد يُغمى عليه مِن شِدّة الاضطراب . والتفتَ إلى التمثال ، فوجده لا يزال على قائمته . فارتمى عليه يحضنه ويغطّيه بالقُبَل . ورفع نظره إلى الوجه ، فإذا بَسْمةٌ حلوةٌ تستقبله .

« هل استيقظتِ من حُلمكِ الورديّ الطويل ؟

« تسافرين ... اليوم يسافر طيفُكِ في جراحي .

«أراكِ تنغرسين في ذاتي وتتجذّرين. وأراكِ في شراييني ترحلين...

«نُؤْتُ بحملكِ ألا تستيقظين؟ أَرْفُضُ بَعْدُ وأَلتصقُ بكِ، وتسافرين. سافـري حيث شئتِ، ما دام قلبي القطار وعيناي المحطّة.

«ستبقين معي. صَمْتُكِ يقهرني ويحاصرني كأسوار قلعة. صَمْتُكِ يقضمني.

«هلّا تكلّمتِ...

«إنّكِ قاسية لا تَرحمين!»

★ ★ ★

وَدبَّ الدِّفءُ في الجماد، وخطا التمثال خطوتين ونزل عن قاعدته.

لم يصدِّق بيغماليون ما رأت عيناه. وقال التمثال:

ـ لماذا، يا بيغماليون، عَكَّرْتَ صفائي وحَطَّمْتَ حلمي؟ مَن أنتَ؟

ـ أنا أبوكِ وأمّكِ ومُحِبّكِ!

ـ كيف تكون في آن واحد أبي وأمّي ومُحِبّي؟

ـ أنا مَن خَلَقَكِ وأعطاكِ الحياة.

ـ لا أعرف بَعْدُ مَن أنتَ... أأنتَ القَدَر تتلاعب بي كَفّاكَ؟ كلماتكَ عذبة. سمعْتُها في حلمي. بَلْسَمَتْ جراحي واخترقَتْ شَغَفَ روحي. ألا أخبرتني مَن أنا؟

ـ أنتِ حلمي المُتجسِّد الذي أعشق وأُحبّ.

وشاء كوبيدون أن يعبث، فوجَّه سهمًا من سهامه إلى قلب العذراء:

ـ لن أرحل عنكَ. أنا صنيعة يديكَ.

وانحدرتْ مـن السماء الآلهة والربّـات والأربـاب، وحضروا عقد زواجهما.

وعاشا حياة هادئةً سعيدة، وتكلّلتْ فرحتهما بأن رُزقا ابنة حلوة دَعَياها بافوس.

٣

عاشت الأسرة السعيدة في جزيرة بافوس اليونانية. وتعهّد بيغماليون ابنته بالرعاية وفتح عينيها على مكامِن الجمال، فشبَّتْ وتزوّجتْ ورُزقتْ صبيًّا دَعَتْه سنيراس، نما وكبر واقترن بفتاة أحبّها ورُزِق ابنة أسماها مُرّة.

ونشأت الفتاة ووافت سنّ الشباب، فاقترن بها شابّ قبرصيّ. وقد دعت إلى حضور حفل عرسها الآلهة والربّاتِ، غير أنها نسيت عشتروت، فغضبت الربّةُ غضبًا شديدًا. لٰكنّها كظمت غَيْظها وقرّرت أن تنتقمَ منها انتقامًا مُخيفًا يجعلها عبرة لكلّ مَن لا يَرعى لها حُرمة ويَخرج، ولو من غير عمدٍ، على قواعد اللياقة تجاهها.

وأدركتْ مُرّةُ خطأها، ودَرَتْ بتصميم عشتروتَ

وخشيتْ سوءَ العاقبة.

فما العمل لِتَلافي ما قد تُنزله بها الربّةُ من عقاب، وعقابُ الآلهة غير عقاب البشر؟

قصدت هيكلَها في بافوس، وجَثَتْ أمام تمثالها وقبّلتْ منه القدمين وقَرعتِ الصدرَ ندامةً وذرفتِ الدموعَ صادِقةً، لعلّها تأخذها بالرحمة. صلّتْ بحرارة طالِبة المغفرة:

«أيّتها الربّة الفائقة الجمال، ألا أشفقتِ عليّ وغفرتِ زلّتي؟ أنتِ تدركين أسرارَ القلوب وخفايا الأفكار، وتعرفينَ بأنّ امتناعي عن استشارتِك ودَعْوتك إلى حفل زفافي لم يكن انتقاصًا من قَدْرِك أو استخفافًا واستهانة بكِ. وها أنا الآن أرتمي عند قدميكِ مُعفِّرةً جبيني بالتراب، راجية عَفْوكِ ونسيان إساءتي.

وسمعتْ مرّةُ هاتفًا يقول:

ـ لا أستطيعُ، يا ابنة سنيراس.

ـ أيّتها الربّة، أجيزي عنّي غضبك، وليتّسِمْ قرارُك بالرأفة. سأرحل عن بافوس وأترك وطني. وهل من

عقاب أقسى من هٰذا العقاب؟

ـ اِتّجهي فورًا إلى أرض بنشاي، وهناك سيُنَفَّذ القرارُ الذي اتّخذَتْه في حقّكِ.

ـ أيّتها الربّة، هَبي أنّني الشرَّ فعلتُ أمام عينيكِ، ألا تَرَيْنَ أنّ الدموعَ التي سكبْتُها عندَ قدميكِ دليلُ ندامتي، فترحمي ضعفي؟

ورقّ قلب زفس، كبير الآلهة، فظهر لمُرّة وقال:

ـ أصدرتْ عشتروت حُكْمها عليكِ، فما إن تَصلي إلى أرض بنشاي حتّى تتحوّلي نُصُبًا مِن أنْصابه.

ـ اِرحمني، يا زفس. أنتَ الوحيد الذي في إمكانه أن يؤثّر على قلب عشتروت.

ـ نظَرْتُ في أمْرِك، يا ابنة سنيراسَ، وطلبتُ من الربّةِ أن ترأف بكِ، فرضيتْ أن تُحوّلكِ كائنًا ليس حيًّا ولا ميتًا.

ـ إلى شجرة؟ يا لَهولِ ما أسمع! ماذا يحلّ بي إن عصيتُ أوامرها؟

ـ لن تستطيعي، فمنذ الآن تسيرين مدفوعة بقوّة خَفِيّة، من دون أن يقوى أحد على مساعدتكِ.

ـ أنتَ...

ـ كلّا. أنا عاجز...

ـ ولٰكنّني...

ـ أعرف ذٰلك، فعندما تتمّ أيّامُك سيَخرج الوليد من جذعكِ.

ـ ومَنْ...؟

ـ ستهتمّ به حوريّات الأشجار.

ـ لن أرى ولدي!

ـ بل ستَرَيْنه وتفرحين به.

* * *

وذهبتْ مُرّة تضرب في الفيافي والهلعُ يتآكلها. ومَشَتْ. مشتْ طويلًا من دون أن تتمكّن من التوقّف ولو مدّةً قصيرة. وصلَتْ إلى أرض بنشاي خائرة القوى، منهوكة الأعصاب، غائرة العينين، مُشعّثة

الشَّعرِ، يُغطّيها غبار الطريق. وشعرتْ بقدمَيْها تتجمَّدان وتَنبتُ لها جُذور...

- اِرحميني، يا عشتروت!

وتحوَّلت استغاثتُها أنينًا حملتْه الرياحُ إلى أطراف بنشاي. وتصلَّبَ جسمُها وغدا شعَرُها أغصانًا. وفَقَدَتْ كلَّ إحساس بالوجود، ولٰكنّها احتفظت بقدرتها على البكاء، تنضحُ دموعُها من قشرتِها، فتُشكِّل قطراتِ المُرِّ الثمين.

راحت الأيّام تَذْوي في بحر الغَيب، ومرَّ خريف وشتاء. وذات يوم ربيعيّ هادئ، انشقَّتْ قشرةُ شجرة المُرِّ وأطلَّ منها وليد فائق الجمال.

اِنحدرَتْ لوسين من أعلى السماء وتلقَّتْه بَيْن يَديها ولَفَّتْه بقِماط من الرياحين وأزاهير الربيع، وتحلّقت حوله حوريّات الأشجار والجداول وأخذْنَ يسهرْنَ عليه ويُطعمْنَه. وصنعْنَ له فراشًا من الزنبق والفلّ والياسمين.

كان الطفل لطيفًا حلوًا، حتّى إنّ الحسد نفسه أُعجب به وكَنَّ له الحبّ.

ورأتْه عشتروت، فامتطَتْ عربتها وانحدرتْ إليه جالبةً معها العسل. وسجدَتْ بالقرب من سريره تُغنّي له وتُدغدغه. وأَوْصَتْ به لوسينَ والحوريّاتِ، فكُنَّ يتنازعْنَ خدمته والسهر على راحته.

ومرَّ النسيم بأوراق شجرة المُرّ، فرقصتْ فرحة، وهمستْ: «أدونيس، أنتَ سرٌّ يحيا في خفايا أضلعي. أنتَ همسة رقراقة في أُذني. أنتَ خلجة فؤادي، وأنا وترٌ أنقر عليه ألحان نُواحي وألَمي.»

★ ★ ★

وانحنَتْ أغصان شجرة المُرّ، وذرفَتْ دموعها حول سرير أدونيس.

كانت عشتروت تراقب كلّ ذٰلك. رأت أنّ الطفل يتمتّع بجمال لم يتمتّع به أنسيٌّ قطّ، ولا رأت له مثيلًا بين الآلهة، فأُعجبت به إعجابًا شديدًا، وأرادت أن تستأثر بتربيته. ولٰكنّ برسيفون، إلٰهة الجحيم القديرة، أدركت ما يدور في خَلَدها، فلجأت إلى جوبيتر، ربّ الأربابِ، ورفعت إليه شكواها:

- يا جوبيتر، أَترضى بأن تتحكَّم عشتروت بمصير أدونيسَ؟ أَلَمْ يَكْفِها ما أَلحقتْ بأُمِّه من ظُلم؟ أهذا هو عَدْلُ الآلهة؟

- اِطمئنّي يا برسيفون. لن أسمحَ لها بأنْ تُلحِقَ بالصَّغير أيّ أذى.

- أودُّ أن يكون...

- كلّا، سيبقى في عهدة الحوريّات حتّى يَشِبّ ويبلغ سنَّ الرُّشْد.

وانحدرت عشتروت في تلك الأثناء إلى أرض بنشاي، وَجَثَتْ بالقرب من سرير أدونيسَ وأخذتْ تُدغدغه وتُكالمه:

«ما أجملكَ، يا أدونيس، وما أَبهى طَلْعَتَكَ وأَلطفَ حركاتِكَ!

«أحبُّكَ من كلّ جَوارحي، وأرغب في أن أعيشَ بقُربكَ وأُفنيَ العمرَ في خدمتِكَ والسَّهرِ على راحتِكَ سأوفِّرُ لكَ حنانَ الأُمِّ الذي حَرَمْتُكَ إيّاه، وأمنحُكَ كلَّ ما تَصْبو إليه نَفْسُكَ».

وظلّت الإلٰهةُ مُلازمةً له تناديه بألطف الأسماء، حتّى أَطبقَ جَفْنَيْهِ واستسلمَ للنَّوم.

* * *

وراحت الأيّامُ تَذوب والأعوامُ تنقضي حتّى غدا الصبيُّ ابن أربع عشرة سنة.

* * *

وذات يوم، سافرَتْ عيناه إلى البعيد.

٤

حزنت الحوريّات وأردْنَ صادقات أن يُبقين أدونيس معهنّ، فكلّ واحدة منهنّ اعتبرَتْه ولدَها وأحبَّته وأحاطَتْه بكلّ ما يحتوي قلب الأمّ من عطف وحنان.

ولم تَبْخَلْ عليه واحدة منهنّ براحة تَبذُلها في سبيله، وبِسَهَر ليالٍ تقضيها إلى جانبه تُغنّيه وتُهدهدُهُ لينام. وأيُّ سعادة كانت تغمر قلوبَهنّ وهنّ يَرينه ينمو ويكبر!

- لن تبارحَ أرض بنشاي يا أدونيس!

- لماذا؟

- ألا تُحبّنا؟

- أيّتها منكنَّ أُمّي؟

- جميعُنا أُمّهاتٌ لكَ يا أدون. اِبقَ معنا ونَعدُك بأنّنا سنبذل جهدَنا لنوفّر لكَ كلّ أسباب الراحة.

- قَدَري أن لا أبقى معكنّ. ورحيلي حاجة مُلِحّة لديَّ.

وصَمَتْنَ باكيات، ورافَقْنه إلى البراري والأحراج.

كان يجري حافيًا، وحيث تقع قدماه تنبت الأزهار. وعندما كان يجلس بالقرب من ينبوع ماء لِيَرْوِيَ ظَمأه، أو في ظلّ شجرة ليبترد، كان يقول في نفسه: «سئمتُ أرض بنشاي، فلا أنا منها ولا هي منّي. بلادي بعيدة أجهلُها... قَدَري أن أرحل كالفراشة... كطيور أيلول.»

وذات ليلة، رأى نَفْسَهُ في عربة تجرّها غزلان مُجنَّحة، وتجري في الفضاء فوق بلدان الناس. لم ترُقْ في عينيه بلادٌ كجبلٍ رآه، تكلِّلُهُ الثلوج وتزدهي على أكتافه أشجارُ الأرز. يَغسلُ قدمَيْهِ في البحر ويشمخُ برأسه إلى السَّماء. يمرُّ به النسيم، فيرِقُّ. تهبُّ عليه العواصف، فتهدأ وتخشع.

ـ ما آسم هٰذا الجبل، يا عشتروت؟

ـ لبنون، يا أدون.

ـ لبنون! يا لها من كلمة سحرية يحلو وَقْعُها في الأذن كزقزقة الكنار. هنا في هٰذه الجنّة الرائعة أودُّ أن أقيم.

ـ لقد أَحسنْتَ الاختيار! فليكنْ لكَ ما تريد.

★ ★ ★

وفي اليوم التالي، استيقظ أدونيس في مغارة أَفْقا بعيدًا عن بنشاي. ووجد نَفْسه مُحاطًا بحوريّات الجبال والأنهار، وقد ضَفَرْنَ جبينه بإكليل من الورد الأبيض. وعند انبلاج الفجر، أحبَّ أدونيس ظِلال الوديان ووشوشات النَّسيم وهديل الحمام واخضلال الأرز وخضرة السنديان وزهور اللزّاب الصفراء، وهتف:

«أُحبّ أن أستمتع بحرّيّتي كالنسر فوق قُنن الجِبال. وهل أطيَب من الحرّيّة؟

«أنا لا أحبّ الأجواء المخنوقة، وأرفض أن أعيش رازِحًا تحت أثقال القهر.»

كانت عشتروت تمشي إلى جانبه من دون أن يراها،

فقد أَبَتْ أن تَظهَر للناس في ثَوبها البشريّ. وهَمستْ في أُذُنه: «مملكتُكَ يا أدون التي أعطيتُكَ أن تعيش فيها، تمتدّ من نهر الكلب حتّى نهر الجَوْز. لكَ أَنْ تتجوّل فيها كما تشاء.»

مشى أدونيس. راح يتسلّق الصخور ويقطع الوديان، لا يُثْنيه عن عَزْمه حاجز ولا تُوقِفه صعوبة؛ وفي المساء يعود إلى وادي النهر الذي أعطاه اسمَه في ما بَعْدُ.

ذات يوم، برزتْ له ديانا إلٰهة الصَّيد، تجرُّ عربتها طيور السُّمانى والتّرغل. ونادته:

ـ أدون!

ـ مَنْ يناديني؟

ـ أنا ديانا. لقد جمعتُ لكَ أَفْواجًا من الأرانب والوُعول والغزلان. ألا تريد أن تصطاد؟

ـ كيف أنهض إليها وليس لديَّ ما أصطادُ به؟

ـ خُذْ هٰذه قوسكَ وسِهامكَ أَعددتُها لكَ.

ـ شكرًا يا ديانا .

ـ كلُّ حيوانات البرّ وطيور السماء تأتمر بي. ألا تأتي معي لأدُلّكَ إلى مَكامِنها وأَوْجارها ووُكناتها ؟ ألا تأتي معي لأُثيرها فتصطاد منها ما تشاء ؟

ـ أنا أحِبُّ أن أجدَها بنفسي وأجرِيَ وراءها وأنال منها .

ـ سأكون رفيقتكَ في رحلاتكَ .

ـ أُحبُّ الوحدة .

ـ كم أنتَ قاسٍ يا أدونيس! تأتي إليكَ الربّات راجية أن تخدمكَ وترعاكَ ، فترفضُ رفقتَها .

ـ أنا أعشق الحرّيّة ، ورفقةُ الأرباب والربّات عبوديّة !

ـ كم أنتَ جميل ، يا أدونيس !

ـ الغرور عبوديّة .

ـ أحبُّكَ وأريدُ أن أتركَ سمائي من أجلِكَ .

ـ الحبُّ عبوديّة .

ـ أنتَ تكرهُني إذًا ؟ . . .

ـ أُناس هٰذه البلاد لا يعرفون الكراهية ، فدينُهم المحبّة . لم يتخلَّ لبنونُ يومًا عمّا أخذ به نفسه ، ومثاله الأعلى : المحبّة . لبنون موطن السلام والأُلفة وملجأ المظلومين ومأوى المقهورين .

ـ إلى لقاء قريب !

ونظر أدونيس من حوله ، فرأى الأشجارَ تتوالى حتّى أعلى القممِ ، ففرح .

وذات مرّة ، بينما كان يجري في الغابات وراء إحدى الطرائد ، شجاه صوت فتاة تُنشد :

« يا إيل !

« يا إلٰه المحبّة والسلام !

« أنت الذي قلتَ :

« المحبّة تَبني والبَغْضاء تَهدِم .

« المحبّة تنير أجواء النفس والبَغْضاء تُشيع الظلام في القلب والعقل .

«اِفتحوا قلوبكم للمحبّة لتشعروا بعُمْق غبطة الروح، وتنفجر في مطاويكم ينابيع الخير، فالخير محبّة والصلاة محبّة والعمل محبّة والتَّجذُّر في أرض الوطن والإخلاص لها محبّة!

«يا إيل!

«يا وجه المحبّة والخير، جئتُ إليكَ ضارعةً لتحفظني برعايتك، وتُبعد عنّي الشرّ، وتغرس في قلبي بذور المحبة!»

ولمّا صمت الصوت الشَّجِيّ عن إرسال ألحانه، صادف أدونيس شابًّا يعترض طريقه، وسيم الخلقة، تبدو على قسمات وجهه دلائل الدعة والهدوء والاطمئنان، فخاطبه:

ـ مَن أنتَ؟

ـ أنا إيل. عرفتُ فيكَ النجابة وصفاء الروح ومحبّة القريب، ولم يخفَ عليَّ صِدْقُك وتَعلُّقك بهٰذه الأرض الطيّبة التي اخترتَها راضيًا لتحضنكَ. هٰذه هي الصفات التي يحتاج إليها البشر. أُعجبتُ بكَ وبمزاياكَ الفريدة،

وشاهدْتُ مهارتكَ في الصيد، فأحببتُ أن أتقمَّص جسدي البشريّ وأنحدر إليكَ.

ـ هل أنتَ إله المحبّة الذي كانت تنشده الصبيّة؟

ـ نعم.

ـ مَن هي الفتاة التي سمعْتُها تُنشد منذ برهة؟

ـ إنّها الإلٰهة ديانا التي تسير وراءكَ منذ وُلدْتَ ولا تُطيق أن تفترق عنكَ، وقد دبّ الحسدُ منها في قلب عشتروت التي ترعاك.

ـ وماذا عليَّ أن أفعل؟

ـ ما عليكَ سوى أن تُوفّق بينهما ولا تَدَعهما تتنافسان على قلبكَ وتتكايدان من أجلكَ. والآن عليَّ أن أتركَكَ يا أدون. واعلم بأنّكَ أصبحت واحدًا من أشهر آلهة لبنون.

ـ كيف...؟

... وضاع صوته في الوديان.

* * *

اِقترب أدونيس من ديانا، وقال لها:

ـ يا ربّة الصَّيد والصيّادينَ، أصحيحٌ أنّكِ قد تعهَّدْتِني منذ مَولدي؟

ـ نعم.

ـ كلُّ ما أودُّ أن أعرف هو حقيقة مَولدي.

ـ وُلدتَ يا أدونيس من شجرة المُرِّ في أرض بنشاي.

ـ أيُعقَل ما تقولين؟ لم أسمع قطّ بأنّ إنسانًا وُلِد من شجرة!

ـ اِسمع يا أدونيس. إنّ عشتروت غضبَتْ من أُمّكَ فأخرجَتْها من موطنها في جزيرة بافوس، وحوَّلتْها شجرة في بنشاي.

ـ وما شأنها مع أمّي؟

ـ إنّ أُمّكَ خرقَتْ قواعد اللياقة ولم تَدْعُها إلى حَفْل زفافها.

ـ يا للقاسية! أما كان في إمكانها أن تكون أكثر رحمة؟ ومَنْ تعهَّدني وربّاني إذًا؟

ـ تعهَّدتْكَ طيور الحمائم وسهرتْ عليك حوريّات الأشجار والجبال.

ـ وما حال أمّي؟

ـ سأُغنّيكَ بعض الأقوال في أُمّكَ بعد رحيلكَ إلى لبنون:

« لمّا توارى ناحَتْ هاتفة: يا ولدي!

« لمّا توارى تنهّدتْ زافرة: يا سيّدي!

« لمّا توارى أَرَنَّتْ مُعْوِلَةً: يا سروري ودليلي!

« لمّا توارى أنَّتْ حسرة. وأرسلَتْ أنّتها في « إيانا » بين الجبال والأودية.

« عويل أُسْرة لا ربَّ لها: هٰكذا عويلها.

« نواح مدينة لا سيِّد لها: هٰكذا نُواحها.

« تنوح على العشب لا جذور له.

« تنوح على القَمْح لا سنابل له.

« بقي بيتها، ولا فرح فيه.

« هي آمرأة منهوكة وولدٌ ملول ذَوَى قبل أوانه.

« تنمو عند النهر الكبير حيث لا تنمو صفصافة .

« تبكي حقلًا لا يَنبت قمح ولا عشب فيه .

« تبكي غديرًا هجرَتْه الأسماك .

« تبكي بقاعًا عاريةً من القصب .

« تبكي الغابات ، غابَ الأَثْلُ عنها .

« تبكي السهلَ لا ينهض السرو فيه .

« تبكي البستانَ الظليل لا فقير فيه .

« تبكي المروجَ المُعَرّاة من الزهور .

« تبكي قصرًا غادرته الحياة طويلًا . »[1]

« وتصيح : « يا لشوقي وحنيني إليكَ يا أدونيس ! يا زهرة المروج الطريّة التي لا مثيل لِطيبها !

« يا لشوقي وحنيني إلى ضَمّكَ إلى صدري يا ولدي ! »

وصمتت ديانا بينما كان أدونيس يمسح الدموع عن عينيه الجميلتينِ .

---

(١) نُواح القيثارات على تموز ـ من الأدب البابليّ.

٥

لازمت ديانا أدون، فراحا يمشيان صامتَيْنِ حتّى وصلا إلى أفقا حيث جلسا على صخرتين متجاورتين.

ـ أدون، سأرافقكَ في كلّ رحلاتِكَ إلى الصَّيد .

ـ لماذا تجشّمين نفسَكِ هذه المشقّة ؟

ـ لحمايتِكَ من المخاطر التي قد تتعرّض لها .

ـ سَهْمي لا ينبو ، فأنا قادر على التغلّب على أيّ حيوان قد يهاجمني .

ـ أنا أخاف عليكَ من غدرِ الأُسود والنمور والخنازير البرّيّة .

وطالَ حديثهما .

كانت عشتروت تراقبها وتتآكل غيظًا. وسيطر عليها الحسدُ، فصاحت:

ـ سأُقصيها عنه مهما كلّفني الأمرُ!

وشعر أدونيس بالنعاس، فدخل مغارة أفقا واستسلم لنوم عميق، بينما اتّخذت ديانا شكلَ فراشة مُلوَّنة حطَّت عند رأسه تحرسه.

وفي اليوم التالي، نهض أدونيس من نومه وحمل قوسه وعلّق جراب السّهام في كتفه وخرج من المغارة قاصِدًا الصَّيد، تُواكِبه فراشة زاهية الألوان استأنس بها.

وفي الطريق، ظهرت له عشتروت. وقبل أن تكلّمَهُ، قال:

ـ ما بالُ الربّة عشتروت؟

ـ أحبُّكَ يا أدون.

ـ أعرف بأنّكِ تحبّينني. ألستِ أنتِ التي أشرَفْتِ على تربيتي وأنا بعدُ طفل، فكنتِ تجلبين لي الحليبَ

والعسل وتَحْدَبينَ عليَّ وتهتمّين بكلّ شؤوني؟ أنا لا أُنكر لكِ جميلًا.

ـ أحبّكَ يا أدون.

ـ الحبُّ قَيْد وأنا أرغبُ في البقاءِ حرًّا.

ـ وتضحياتي من أجلكَ؟

ـ أأنا طلبتُ منكِ هَجْرَ سماء قبرص من أجلي؟ أأنا دعوتُكِ إلى تَرْك عرشكِ السماويّ والتشرُّد على طُرُق الدنيا والتعلّق بأذيالي؟

ـ أُنظُرْ إليَّ كم أنا جميلة يا أدون!

ـ أنا أُحبُّ الجمالَ في الزهور والأشجار والغيوم والأمطار والعواصف والصخور والطيور والفراشات...

وكانت عشتروت عالِمةً بتحوُّل ديانا فراشةً تُلازِمها وتستمع إلى أحاديثها.

ـ ما بال هٰذه الفراشة تلاحقكَ؟ أُقتُلْها!

ـ أنا لا أحبّ أن أسمع هٰذه الكلمة، ولا أقتل

الحيوانات لألْهُوَ. إنّ قَتْل الفراشة يَحرم الدنيا من إحدى مَباهِجها.

ـ يا لكَ من شابّ رقيق القلب تشعر بجمال الفراشة وتحافظ عليه وتُهمل جمال المرأة!

وحنقت عشتروت في سرّها لهٰذا العناد، وتضاربت الأفكار في رأسها وتشابكت. إنّها تحبّه ولا تريد الانتقام منه، فقد يبدّل رأيه. إنّ الطبيعة البشريّة متقلّبة. إنّ ديانا تُقلق. إنّها ربّة الصَّيد. قد تيأس منه وتثير أحدَ هٰذه الحيوانات المُفترِسة، فيُلحق الأذى بـه. وقرّرت الذهاب إلى زفس لتكلّمه وترى ما يكون.

ولمّا ابتعدتْ عشتروت، خلعتْ ديانا ثوب الفراشة وبدت لأدونيس في ثوبها البشريّ، وقالت:

ـ أخشى عليك يا أدون مِن كَيد هٰذه الربّة القاسية الحَقود. أودّ أن أبقى إلى جانبك لأَردّ عنكَ صنوف الأذى التي قد تُلحِقُهـا بـك انتقامًا. قـد سمعتُ ما دار بينكما من حديث؛ إنّها لا تنام على ضَيم، ولا تسكت عن إساءة لحقتْ بها.

ـ ولٰكنّني لم أُسِئْ إليها.

ـ رَفْضُكَ حُبَّها إساءةٌ.

ـ لا أتمكّن يا ديانا من أن أنسى مُعامَلَتَها لأُمّي.

ـ أنتَ تنتقم منها إذًا؟

ـ أبدًا. قلبي لا يعرف غير الحبّ وطبيعتي تأبى الانتقام.

«ما ذَنْبي أنا إذا انطلق سهوًا سهمُ ابنها كوبيدون وجرح فؤادها، فشُغِفتْ بي وتبعتْني إلى لَبْنون؟

«ما ذَنْبي إذا كان قَدَري يُحتِّم عليّ أن أعيش وحيدًا؟»

وساد الصمت بينهما.

٦

لم يكن أدونيس يبدِّلُ من عادته. يخرجُ كلَّ صباح، عند الفجر، من مغارة أفقا، حاملًا قوسه وسِهامه، ويتّجه إلى الغابات مُفتّشًا عن الحيوانات. يقتات بالأعشاب والثمار التي يَجِدُها في طريقه، كالعنب والتّين والإجّاص والزعرور، وبِلُحوم الحيوانات البرّيّة التي يصطادها والغزلان والأرانب وغيرها.

كان قانعًا بمعيشته، سعيدًا بحياته. يتحدّث مع مَن يُصادِفه من الناس الذين يعيشون بالقرب من مجاري الأنهر. وكان الإنسانُ قد بدأ مرحلةً جديدةً من حياته، إذ ظهرتْ على السواحل وفي الجبال المجتمعاتُ البشريّة الأولى.

أَحَبَّ أدونيس بيئته، فتعلّم الحراثة وزراعة الحبوب وتدجين الحيوانات وشُغْل الأدوات التي يحتاج إليها.

وكانت البقعة المُفضَّلة لديه وادي نهر إبراهيم وجِواره، حيث كان يقضي معظمَ أوقاته. وكانت ديانا لا تُفارِقه، ولا عيناها تميلان عنه. ولم تَنْسَهُ عشتروت، فتارةً تغضب عليه وأُخرى تشتاق إليه وترضى عنه، فتركب عربتها التي تجرُّها الحمائم وتطوف سماءَ لبنون مفتّشةً عنه.

وفي أحد الأيّام، اشتاقت إلى ملاقاة صديقها وقضاء بعض الوقت معه، فلبستْ صورتها البشريّة وانحدرت إليه، ونادته:

ـ أدون!

ـ ماذا تريدين؟

ـ هل أنتَ حاقد عليَّ؟

ـ قلبي لا يعرف الحقد.

ـ أودُّ أن أكون رفيقتك اليوم، ولن أُفارقكَ بعدَ الآن.

- كما تشائين يا عشتروت.

- اِنْتَبِهْ إلى نفسك يا أدون، ولا تستخفَّ بأذى الضواري التي تحيط بك.

- لا تقلقي يا عشتروت، فقد اعتدْتُ على ألّا أُخطِئ هدفًا أُصوِّب إليه سهمي.

- أنا أرتجفُ خوفًا عندما أفكِّر بأنَّكَ تقضي حياتَكَ في هذه الأمكنة المُوحِشة المليئة بالأخطار.

- ماذا تريدينني أن أفعل؟ يجتاحني إحساس غريب بالضجر والقلق عندما لا أعملُ، فالعمل حاجة مُلِحّة تَدفعني إلى أن أُشارِك الرعاة في إسامَة ماشيتهم والفلّاحين في حراثة أرضهم والمُزارِعين في غَرْس نَصباتهم وبَذْر حبوبهم. عندما أطوفُ الجبال والوديان والمُنبَسَطات وأصطاد طيورها وحيواناتها المؤذية، ينتابني شعور بالراحة والاطمئنان، فحياةُ الجمودِ عارٌ على الإنسان.

- من أين لكَ هٰذه الحكمة يا أدون؟

- أكسبَتْني إيّاها مُعارَكةُ الأيّام.

- لكَ الحقّ، فالعمل للبشر واجبٌ لا مَفَرَّ منه. ثابِرْ على ما آمَنْتَ به واتّخذْتَه مِثالًا. رَعاكَ جوبيتر من عَلْياءِ الأولمب.

★ ★ ★

ومشى أدونيس في الغابة، وأخذ يقترب شيئًا فشيئًا من رجل جالِس على صخرة ملساء كخدّ الفتاة، ينفخ في قصبة بين يديه، وقد تفرّق قطيع أغنامه بعيدًا عنه كَسَرْبٍ من الغيوم الربيعيّة البيضاء.

وجرى أدونيس يلاحقها ويجمعها له، فرأى أسدًا جاثمًا يمزّق لحم نعجة، فسدّد إليه سهمًا أَرْداه.

ولم يُدرِكِ الراعي ما جرى، وصاح:

- أيّتها الآلهة العظيمة! كم أنا مَدين لكِ! تركْتُ قطيعي يسرح في الوادي وقَعدْتُ عن جَمْعه، وها هو يتجمَّع مِن حولي! أنا لا أستحقّ...

ولم يُكمل الراعي عبارته، فقد رأى شابًّا ممشوق القامة، أشقر الشعر، مُستدير الوجه، مَفتول العضل يقترب منه.

- هل أنتَ أيّها الشابّ الجميل، مَن..؟

- رأيتُكَ مُستغرِقًا في ألحانِكَ والشمسُ تَحدب إلى المغيب، فقلتُ في نَفْسي إنّ الحيوانات المؤذية التي تكثُرُ في الجوار قد تعتدي على أغنامكَ، فعمدتُ إلى جَمْعها. وإنّني لا أرى أنّني بعملي هٰذا قد أسديتُ إليك معروفًا.

- ما اسمكَ؟

- أدونيس.

- أدون! أدونيس!... أظنّ بأنّني سمعتُ هٰذا الاسم قبل الآن.

- ممّن؟

- مِن أحد مُزارِعي الجوار.

وبعدما وَدَّعَ أدونيس الراعيَ، سارَ عائدًا إلى مسكنه، فظهرتْ له عشتروت في كلّ بهائها، وقالت:

- سأقضي السَّهرة معكَ.

- أهلًا بكِ يا عشتروت.

ومنذ ذٰلك الحين، لازَمَتْه مُلازَمة ظِلّه ولم تَعُدْ تبتعد عنه. تخرج معه إلى الغابات وتتسلّق الجبال وتنحدر إلى الأودية. تُثير له الكلاب وتُلاحِق الحيوانات التي لا تؤذي لِيَسْهُلَ عليه صَيْدُها وتُبعِد عن طريقه الذئاب الغاضبة والخنازير البرّيّة القويّة والدِّبَبَة المسلَّحةَ بأظافرَ جارحةٍ والأسود المُعتدِية.

وعندما يتعبان يجلسان تحت شجرة دُلْب أو سِنْديان، وتبذل له نصائحها:

«كُنْ شجاعًا مع الطرائد السريعة الجَرْي، فلا تَدَعْها تُفلِت منكَ.

«اِبتعِدْ عن الحيوانات الجريئة التي تقفُ في وجهك وتُقاومكَ، فهي خَطِرة على حياتكَ.

«تَلافَ يا صديقي كلَّ مُجازَفة تُعرِّض سعادتي للزّوال.

«إيّاكَ أن تُهاجِمَ الحيوانات المُفترِسةَ التي سَلَّحَتْها الطبيعةُ بسِلاح فتّاك لا يُقاوَم.

«إنّ شبابَكَ الغَضّ وجَمالكَ الباهِر اللذينِ أثّرا في

فؤاد عشتروت وربطاها بكَ لن يُؤثِّرا في الخنازير البرّيّة ولا الأسود التي تَحمل الموت في أنيابها.

«عِدْني بأنّك ستعمل بنصائحي هٰذه.»

- أيّتها الرّبة، قولي لي لماذا لا أستطيعُ قَهْر هٰذه الحيوانات؟

- لدى وصولنا إلى أفقا، سأقصّ عليكَ قصّة توضِح كلّ ما خَفِيَ عليكَ.

وفي المساء، لمّا عاد أدونيس ورفيقته إلى مغارة أفقا، وجدا أنّ الحوريّات قد جَهّزْنَ لهما سريرين من الزنابق والورود وأزاهير الحقول، فاستلقيا يرتاحان ويتحدّثان.

قال أدونيس:

- ما القصّة التي وعدتني بأن ترويها لي؟

- ربّما بلغَتْ مَسامِعَكَ قصّة أتلانت؟

- لا. لم أسمعْ بهٰذا الاسم قطّ قبل الآن. مَن هي هٰذه الفتاة؟

- إنّها فتاة عدّاءة كانت تَسبق الريح في مُباريات العَدْو التي تُقام في اليونان، فلم يكن أحد يستطيع مُجاراتها من الإنسِ أو الجان، كما لم يكن أحدٌ قادراً على أنْ يُقرِّر إذا كانت تتغلّب على المتسابقينَ بفَضْل سرعتِها الفائقة أو بفَضْل فِتْنتها وجَمالها الساحرينِ.

«وعَنَّ لها ذات مرّة أن تستشير الإلٰه زفس في الشابّ الذي سيكون شريكَ حياتِها ومَرمى أحلامِها، فسمعَتِ الهاتِفَ يقول لها:

- لستِ في حاجة إلى زوج يا أتلانت!

- ماذا أفعل أيّها الإلٰه إذا أعجبني شابّ وشُغِفْتُ به؟

- مَصيركِ يُحتّم عليكِ أن تقترني به، ولٰكنّكِ لن تبقي أنتِ نفسك.

«وهلعتْ أتلانت لهٰذه النبوءة، وقرّرت أن تعزِفَ عن الزواج.

«وذاع صيتُها وكَثُرَ المُعجَبون بها، فأتوا من كلّ

صَوب يطلبون يدها، فاستنبطتْ حيلة للتخلُّص منهم. كانت تَفرِض على مَن يريد أن يفوز بيدها، أن يتغلَّب عليها في مباراة للسباق، وإن فشل فالموتُ مَصيره. وقد امتنع البعض، كما دفع البعضُ الآخر حياته ثمنًا لجرأته.

«قلَّ طالبو يَد أتلانت من دون أن يقلَّ المُعجَبون بها. وقرَّرَ هيبومين وهو أحد المُعجَبين بها أن يفوز بها أو يموت؛ وكان شابًّا وسيمًا يملأ الحماسُ بُرْدَيْه، وقد أعماهُ حُبّها، فقصَدها وقال:

ـ قبِلْتُ برهانكِ يا أتلانت.

ـ فكِّرْ في الأمر قبل أن تُقْدِم عليه، فكثيرون دفعوا حياتهم ثمنًا لتهوُّرِهم.

ـ لم يَعُدْ من مجال للتراجُع. لقد فكَّرْتُ طويلًا قبل اتّخاذ قراري الحازم هذا. الحياة ميدانُ صِراع، والنجاح فيها للمُجترئين الذين يُقْدِمون من دون تردُّد ولا يُحجِمون واجِفينَ. سأُنازلكِ يا أتلانت، فَنَوالكِ يستحقُّ المُجازَفة.

ـ إنّ مُغامَرتكَ هذه ستكلِّفكَ غاليًا!

ـ على المُجازِف ألّا يُفكِّر بالثمن الذي سيدفعه.

ـ أَشْفِقْ على شبابكَ وجمالكَ ولا تُقامِرْ بهما من أجْلي، فحُبّي نارٌ تُحرِق كلَّ مَن يرغب في امتلاكي.

ـ لا معنى لحياتي إنْ لم أقترنْ بكِ.

«أُعجِبتْ أتلانت بهيبومين، وقرَّرتْ أن لا تَدَعه يموت من أجْلها، ونسيتْ في غَمرة فرحتها نبوءَةَ زفس. وبعد برهةِ تفكير، قالت له:

ـ اِسمع يا هيبومين، لن تستطيع أخْذي إلّا بالحيلة. سأُعطيكَ تفّاحاتٍ ذهبيّةً ثلاثًا، وكلّما تقدّمتُكَ مسافةً، ارمِ واحدةً منها وراءكَ.

«وغمرتِ السعادة قلب الشابّ، وأدركَ أنّه نال حُظوة في عينَي فتاته.

«وحان موعد المباراة، فوقف هيبومين وأتلانت على أُهبة الاستعداد للسباق. وما إن أُعطيت إشارة الانطلاق حتّى عَدَتِ الفتاة بسرعة فائقة وغابت عن

الأبصار. وسمع هيبومين هاتفًا يصيح به: «اِرْمِ التفّاحة الأولى!» ففعل.

«والتفتتْ أتلانت إلى الوراء لتتفقّد مكان وصول مُنافِسها، فرأت التفاحة الذهبيّةَ تتدحرج على الأرض. وأُخذتْ بِوَهج بَريقها ورامَتِ آمتلاكها. وتردّدتْ قليلًا، فشعرتْ بقوّة تجذبها إلى الوراء، فما كان منها إلّا أن عادت على أعقابها والتقطتِ التفاحة.

«وتمكّن هيبومين في هٰذه الأثناء من أن يسبقها مسافةً لا بأس بها.

«واستجمعتْ أتلانت قواها وعاودت عَدْوها وهي تُردّد: «ما أخفَّ عقول هٰؤلاء الشبّان، يُعرِّضون حياتهم للخطر من أجل جَمالي!»

«والتفتت وراءها ثانية، فوجدت أنّها تسبقه بمسافة كبرى، وتكاد تصل إلى الهدف، فتباطأتْ من دون أن تُدرِك السبب. ولمّا حاذاها راحت تنظر إليه، فزاد إعجابها به.

«وأدرك هيبومين ضعف موقفه واستحالة فوزه، فرمى التفّاحتينِ المتبقّيتَينِ في اتّجاهينِ مُختلفينِ.

★ ★ ★

«حالف الفوز هيبومين، فارتمى على ركبتيه وشكر الإلٰهة، ثمّ أنشدَ:

«يا فتيات هٰذه الجبال المُقدّسة،

«اِشربْنَ من خمرة نياسا،

«اِشربْنَ عسل السواقي والأنهر ولبنها، وزيِّنَّ خُصوركُنّ بأزاهير الحقول.

«يا عشتروت! يا جميلة بين الربّات!

«يا ربّةَ الأمل والخصب والتجدُّد!

«يا مَنْ خَصَصْتِ أرضنا بالخير!

«يا مَنْ لا ترتوي من عطاء!

«جئتُ أَشكركِ على ما أنعمْتِ عليَّ مِن فوز!

«آلافُ الدُّهور مَرّتْ وآلاف غيرها ستنهال في بحر الأبديّة، فلا رَحِم في السّماء تَلِدُكِ مَرّةً أخرى، ولا

خيال إله يكون مثيلًا لكِ.

« أَوْلَدكِ جوبيتر، كبير الآلهة، رمزًا للخَلْق والتجدُّد، وشكلًا من أشكال الجمال الكامل.

« يا فتيات فينيقيا.

« اِخشعْنَ أمام عَظَمة الإله إيل، فهو مَلِكُ هذه الأرض.

« لا أُمٌّ ولا أبٌ ولا نسبٌ له.

« يا إيل! يا إله المحبّة والإخاء!

« أيّها الإله العادل المستقيم الذي يَملأ وجودُه الأبد.

« يا مَن اتّخذَ هذا الجبل كرسيًّا لمَجْده، أشكركَ!

« يا إيل! يا إله الزمن!

« يا مانِح الخير والسَّلام والرفاه للبشر!

« يا خالق الخلائق كلّها!

« يا مَنْ لا يعرف الحِقْدَ قلبُه ولا الغضبَ فؤادُه، اجعلنا مُؤهَّلينَ لأن نسيرَ على الطريق التي رسمْتَها، فلا تعرف قلوبُنا رِياءً ولا كُرْهًا ولا ظلمًا!»

« ولمّا انتهى هيبومين من إنشاده، فتّش بعينيه عن أتلانت، فلم يرَ سوى لَبُؤَة تقف غير بعيد عنه وتنظر إليه بعينَيْنِ حزينتينِ، فصاح هلعًا:

ـ أتلانت!

« فلم يُجبْه سوى زئير اللَّبُؤَة التي عَدَتْ مُسرِعةً صوبَ غابة قريبة من ميدان السباق».

★ ★ ★

رانَ الصَّمْت في مغارة أفقا، وساد معه هدوء عميق، ولم يعدْ يُسمَعُ سوى خرير الماء المُتدفّق من قلب المغارة.

ـ ما بالُكِ يا عشتروت؟

ـ هل أَوْضَحَتْ لكَ القصّةُ الأُمورَ التي كانت خافِيةً عليكَ؟

ـ ...

واستلقى أدونيس وأغمضَ عينيه، واستسلمَ لنومٍ هانئ حافِلٍ بالأحلام.

★ ★ ★

٧

لازم الراعي أدونيسَ، فقد أُعجِب به: بِدَماثة أخلاقه، وحُسْن خِصاله، وبهاء طَلْعته، وكمال خلقته، وشِدّة جُرأته، وصِدْق تَعاوُنه مع الآخَرين، وخُلوص أمانته لأصدقائه، وعُمْق تَعلُّقه بأرضه. وربطتْ بينهما أَواصِر صداقة متينة وغير مُرتكِزة إلى أساس فائدةٍ أو مَنفَعة.

وكان أدونيس يمشي إلى حيث يَطيب له، فيعتلي الصخور ويَستظِلّ الأشجارَ ويتوقَّف قرب الينابيع، والطريقُ تمضي به صُعُدًا، فيصل مرّاتٍ إلى قرطبا.

كان يُحِبُّ المنطقة التي نزل فيها، ويشعر في داخِله بأنّ هٰذه الجبال التي تُحيط به وهٰذا الواديَ الذي يقيم فيه

جزءٌ مِن ذاتِه.

وكم عَشِق هٰذه الأعاليَ! وكم خشع أمام هٰذه الوديان السحيقة الصامتة!

★ ★ ★

وذات يوم وصل به المطافُ إلى أعلى جبل ورديّة، فغمس عينيه بنور مَشاهِد بلاده البهيّة. وبينما هو مأخوذ بما ترى عيناه، سمع غناءً تُردِّد أصداءه الحنونة الأوديةُ المجاورة، فأصغى إليه بكلّ جَوارحه:

«أُرقصن يا صبايا لبنون، فالأرض التي تُقِمْن عليها أفراحكنّ تتقدّس بِلَمْس أرجُلكنّ وتتباهى بجمالكنّ وتبتهج سَكْرى لِسَماع رنينِ ضَحِكاتكنّ الهازجة!

«أُرقصن على صخور الوديان ومَشارِفها. عند ينابيع الماء الصافية الرقراقة.

«أُرقصن بين أشجار الأرز والحَور والسنديان، فالنور الذي ينبع منكنّ يبدِّد الظلمات ويقهر تنّين الشرّ!

«اِهنأنَ يا صبايا بلادي، فالأرض التي تطأُنها مُبارَكة وهي مَرْتَع الجمال والخير.

«أُرقصن...»

ـ أهٰذا أنت يا صديقي؟

ـ أهلًا بكَ. هل أعجبتْكَ أُنشودتي؟

ـ إنّها رائعة حقًّا.

وجلس أدونيس بالقرب من عبدوئيل، صديقه الراعي، في ظلِّ شجرة حَورٍ مُنسدِلة الأغصان يتحدّثان.

ـ أين تسكن يا عبدوئيل؟

ـ هٰذه الجبال مُلْكي، لا ينازعني فيه أحد. لقد سعيتُ إلى تأسيس قرية صغيرة دعوتُ إليها مَن يأهلُ هٰذا الجوار.

ـ وهل لقيتْ دعوتُكَ تجاوبًا؟

ـ نعم. ونحن نكوِّنُ اليوم مجتمعًا سكنيًّا.

ـ وهل أنتم سُعداء؟

ـ السعادة، يا أدونيس، ليست من هٰذا العالَم.

ـ وهل تقيمون على اتّفاق؟

ـ نحن نَحتَكِمُ إلى كبيرٍ فينا ولا نُخالِف له أمرًا. وقد ٱرتضَينا العيشَ المُشترَكَ الذي يقوم على الإلفة والمحبّة.

ـ وأين تقع قريتكم هٰذه؟

ـ غير بعيد من هنا. أتودّ أن تتعرّف إليها؟

ـ ولِمَ لا؟

ـ هيّا بنا إذًا، إنّني أدعوكَ إلى البقاء في ضيافتنا هٰذه الليلة.

ـ سننظر في الأمرِ بعدَ وصولنا إلى قريتك.

ـ كما تشاء.

★ ★ ★

اِنحدر أدونيس برفقة عبدوئيل إلى وادي نهر الغابون. وإذ هما في الطريق رأى غزالًا يقف على صخر شاهق، فوترَ قوسه وأخذ سهمًا وصوَّبه إليه، فمرق يصفرُ. وإذا بالحيوان يهوي غير بعيد عنه، فتقدَّم منه ورفعَه على كتفيه. ولمّا استدار ليُتابع طريقه، رأى فتاة

ذات قَوام مشيق، شقراء اللّون، مسدولة الشعر، مستديرة الوجه، عسليّة العينين، خفيفة الخَطْو، ينضح السِّحرُ منها، تقول له بصوت حنون:

- لقد أعتديتَ على صَيْدي.

- وكيف ذٰلك؟

- كنتُ أُطارِد هٰذا الغزال حتّى أقوده إلى عَراءٍ أتمكّن من اصطياده فيه.

- خُذيه، فهو لكِ. ولٰكن من أنتِ وكيف وصلتِ إلى هنا؟

- أنا ابنةُ هٰذه الأرض.

- ما أكرَمَ هٰذه الأرض، تُنْبِتُ مثل هٰذا الجمال!

- وأنتَ مَن تكون؟ وما الذي أتى بكَ إلى هٰذا المكان؟

- أنا أيضًا ابنُ هٰذه الأرض. ما اسمُكِ؟

- سانا.

- عاشتِ الأسماء!

- وأنتَ؟

- أدونيس.

- وإلى أين تقصد؟

- اِستضافني راعٍ صديق، وها هو آتٍ، تُخْفيه هٰذه الصخور عن أعيننا.

- مَن؟ أبي؟

- وهل من رعيانٍ غير أبيك في هٰذه الأمكنة؟

- لا أعتقد، فأبي هو الراعي الوحيد في هٰذا الجوار.

- لماذا تعيشين هنا ولا تقصدين جبّ إيل؟

- فُطِرَ الإنسان على حُبّ الأرض، وهو يتعلّق بالمكان الذي وُلد فيه، يندمج فيه حتّى يصبح قطعة من روحه يصعب عليه أن يفترق عنها. أنا أقصد جبّ إيل في الأعياد والمواسم الكبرى، ثمّ أعود إلى قريتي. أشعر برابِط قويّ يشدّني إلى هٰذه الأشجار الخضراء والصخور السمراء، فهي بالنسبة إليَّ كائنات حيّة ألِفْتُها. أُجالِسها

في ساعات وحشتي. أجالِسُها وَأُغنّيها وأسمع وشوشاتها، فتزول كَرْبتي.

وارتفع صوتٌ ينادي:

ـ سانا!

ـ أنا في طريقي إليكَ يا أبي.

ـ هيّا بنا يا أدونيس، نساعد أبي في جمع القطيع.

كنتُ دومًا، في هٰذه الجزر الخضراء، أحلُمُ بصيّاد يأتي من الغَمام يُشارِكني الحياة، فأسعَدُ بِلُقْياه وقُرْبِه، ويملأ دنياه بي، ويُزيل مسحة الكآبة عن عينيّ.

ـ إلى أين يا سانا الآن؟

ـ إلى حيث ينتظرنا أبي، فهناك مغارة واسعة اتّخذناها مسكنًا، سنجد فيها الدفء والأمان. سيدقّ أبي الحَبّ لصُنْع الخبز، وتهتمّ أنتَ بسَلْخ الغزال، وأتولّى أنا وأمّي تحضير طعام العشاء. وعندما نُنهي أعمالنا، سأسهر وإيّاكَ وحدنا في ضوء القمر نتناجى وننظر إلى السماء نراقب مَواكِب الآلهة. وسأدعو لكَ حوريّات الغابات والأنهار، فنرقص ونغنّي.

ـ سانا!

ـ ماذا يا عزيزي؟

ـ هل أحببتِ يومًا؟

ـ نعم، أحببتُ بلادي وأهلي.

ـ كم أودُّ أن أبقى إلى جانبكِ!

ـ وما الذي يمنعكَ؟

ـ عشتروت وديانا.

ـ ألعلّكَ طلبتَ الوحدة وأويتَ إلى هٰذه الأماكن الموحشة هربًا؟...

وركضت سانا واختبأتْ وراء الصخور. وجرى أدونيس هَلِعًا، وهو يصيح:

ـ سانا! سانا!

فكانت تُطلُّ عليه تارةً من وراء حاجز صخريّ وأخرى من وَهْدة وثالثة من أعلى شجرة، فيركض لينضمّ إليها، وإذا بها قد اختفتْ.

ـ كُفّي عن لَعِبكِ يا سانا.

وظلّت تركض هكذا حتى وصلتْ إلى المغارة وهو في إثْرها.

ـ لِنُشعلِ النارَ يا أدون. ها هي الأَحطابُ جاهزة تحت شجرة الصنوبر.

ـ أين أبوكِ؟

ـ ألا تراه هناك يدقُّ الحبَّ ليصنع لنا دقيقًا؟

وأشفقتِ الحوريّاتُ على أدونيس وسانا، فأتينَ وأشعلْنَ القشّ وأوقدنَ النّارَ، وجهّزنَ له حجرًا أملس قاطعًا ليسهِّلْنَ عمله في سَلْخ الغزال.

★ ★ ★

كانت عشتروت تنظر إلى أدونيس وسانا وتحترق حسدًا وتشتعل حقدًا. ولم تعد تحتمل أن تسمع أدونيس يُكالِم سانا بعبارات التودّد ويوشوش في أُذنَيها كلمات الحبّ.

ـ أيُهْمِلني، أنا ربّة الجمال، من أجل هذه الراعية؟!

وانحدرتْ إليه غَضْبى. وغابت الزُّهَرة ذلك المساء عن سمائها. وافتقدتْها النجوم، فلم تَجِدْها.

وما إن وصلت حتّى نادتْه:

ـ أدون!

ـ ماذا تريد ربَّةُ الجمال والتجدُّد والخِصْب؟

ـ إنّكَ تُهمِلني وتتناساني وتسعى إلى كَسْب وُدِّ سانا.

ـ دعيني يا عشتروت لسعادتي. أنا أهوى البراءة والبساطة، وقد وجدْتُها في سانا.

ـ أتعني أنّك أحببتَ الفتاة؟

ـ نعم. أنا أُحبُّ سانا. اِرحلي إلى سمائكِ، فكلُّ الأربابِ والربّات عبيدٌ لكِ، دعيني أعيش لِنَفْسي برهةً.

ـ إن تركْتُكَ وضحَّيْتُ بحبّي من أجلك، فهل تتركك ديانا؟

ـ وما شأنُها معي؟

ـ إنّها لن تتخلّى عنكَ. ولولا خوفُها من سُخْطي لكانتْ أهلكَتْكَ.

ـ أنا أفهم أنّ الناس يتكارهون ويتقاتلون ويقتل بعضهم بعضًا من أجل عينَي فتاة أو كمشة من تراب، ولا أفهم كيف أنّ الآلهة التي تُشرفُ على مصائر البشر تنحدر...

ـ أنا أخشى عليكَ من ديانا.

ـ اِطمئنّي بالًا، فهي لن تجرؤ على إلحاق الأذى بي.

ـ دَعْ سانا وشأنها! اِبتعدْ عنها!

ـ أليسَ من حقّي أن أُحبَّ مَن أشاءُ يا عشتروت؟

ـ كلّا! أنتَ مُلْكي، ولن أدعَ أحدًا يَقْرَبُكَ سواي. أنا أغار عليكَ من النسائم تُدغدغ شعركَ، من أشعّة الشمس تُنوِّر وجهكَ، من الأرض التي تطأها قدماك، من...

ـ أنا مُلْك نَفْسي، أتصرَّف كما أشاء. ماذا أفعل إذا كان ابنكِ كوبيدون أصاب فؤادي بسَهْم مِن سهامه الجارِحة؟ أنا أرتاح إلى عِشْرةِ سانا، ولا يطيب لي عيشٌ بعيدًا عنها.

ـ إنّ ديانا ترصد حركاتكَ، وقد تغضب وتثير أحدَ الحيوانات الضارية، فيُلحِق الأذى بكَ.

ـ سأتدبّر أمري معها.

وانصرفَتْ عشتروت حانقة، ولٰكنّها لم تُضمر أيَّ حقد له.

ـ مَن كنتَ تُكلِّم يا أدون؟

ـ الربّة عشتروت.

ـ وما بالُها؟ سأُضحّي لها الأضاحي وأُنشدها وأُغنّيها وأزيّن جِيدها بالزهور والرياحين.

ـ ...

ـ ما بالُكَ لا تجيب؟

ـ إنّ الأمر صعب، ولا أستطيع أن أُوضِحه لكِ يا سانا.

وقضى أدونيس السَّهرة مع سانا، وتحدّثا وتناجيا طويلًا:

ـ سانا! صوتكِ الحنون كإضمامة الورد أو باقة

الياسمين، أعادني إلى الحياة بعدما كنتُ أسيرُ كالظلِّ الأسير نحو الغروب في زورق الأيّام!

ـ أدون! صوتكَ شَجِيٌّ، رائعٌ هنيّ. يعيش معي. بين أضلُعي. لن أنساه أبدًا، فهو رفيقي الأمين، ولَحْني الحزين. أُحبّه بلا حدود!

ـ سانا! صوتُكِ ناعم... يا فاتِنتي. صوتكِ لطيف، كرَقّةِ جناح طائر، كهَديلِ حمامة عاشقة. عندما يتسلّل إلى ذاتي يأهلني، ويسير في دمي!

ـ أدون! أخاف أن يختفي فيَّ صدى صوتِكَ الذي يتردّد في قلبي وخيالي، وينساب فيها أنشودة من نور، شَذى أطياب، عُصارة دهور!

ـ سانا! أودُّ من صميمي أن أختفي صورةً في صدى عينيك، وأن أصبحَ طَيفًا يُرافِق ظِلَّكِ على الأرض، وأن يبقى لي منكِ حنان الصوت البعيد.

«أودُّ أن أختفي، أن أذوب وأن تبقى لي منكِ روعة صوتكِ وفتنَةُ أنغامكِ. أنتِ البلبلُ الصدّاح على مَشارِف الدنيا، أقبلْتِ وأفاقَ العالَم عند أقدامكِ. أقبلتِ على

الوجود وفي عينيك العسليّتين أحلام زرقاء بِلَوْنِ السماء، ذهبيّة كأشعّةِ شمس الغروب. أنتِ حلمي الأزرق الوحيد!»

ـ أدون! أودُّ أن أهرب إلى الصحراء، أن أختفي وإيّاكَ في أكوام الرمال لئلّا يبقى لي سواكَ أنتَ. رسمُكَ زادي، يا نعمتي، وصوتكَ خمرتي، واسمك صلاتي ومُلهِمي وسَعْدي!

٨

ظلَّ أدونيس مُلازِمًا سانا، لا يُفارِقها. كان يصطحبها إلى رحلات الصيد التي يقوم بها، يُلازِمها مُلازَمة ظلِّها. لا يكفُّ عن بَثِّها لَواعِج صدره، غير عابئ بما تخبّئه الأيّام له.

ونسي نصائح عشتروت له بوجوب الابتعاد عن صيد الحيوانات الضارية وبخاصّة الخنازير البرّيّة. وكانت الربّة تفضِّل نسيان الإساءات التي يقترفها في حقّها. ولم تُضمِر له حقدًا أو رغبة في الانتقام منه، بل ثابرت على حمايته، فكانت تقتفي خُطاه سرًّا وتُبعِد عن طريقه الحيوانات البرّيّة الشرسة وتَردّ عنه غائلتها.

أمّا ديانا فقد تضرّمَتْ غيظًا عليه. وبعد تردُّد قرّرت

أن تنتقم منه انتقامًا شديدًا لإهماله إيّاها وعدم استجابته لرغائبها.

★ ★ ★

وفي أحد الأيام، انحدرت من عَلْياء سمائها، ولبستْ ثوب فراشة وراحت تطير من حوله في انتظار الفرصة المناسبة لمُقاوَمته.

أمّا سانا، فكانت سعيدة تنتظر ساعة الاجتماع مع أدونيس. ولم يكن يُداخِل قلبها أيّ همٍّ حيال الأخطار التي كانت تحيق به.

كانت مملكتها تشمل أراضيَ واسعة يتنقّلان فيها حيث تقودهما خُطاهما، فكانا تارة يقصدان قرطبا الواقعة على سفح جبل ورديّة والتي تُشرِف على وادي نهر الغابون من ناحيته الجنوبيّة، وأخرى يذهبان صُعُدًا إلى العاقورة أو ينحدران إلى وادي أفقا. وقد يقودهما تَجْوالها إلى الفُتوح، فيتسلّقان جبل الكُنيسة الذي تكسوه غابات الصنوبر والشربين. وقد عرفَتْها كلُّ الصخور والكهوف والأشجار والينابيع في تلك القرى والأماكن.

وكانا يعودان إلى وادي نهر الغابون أو إلى مغارة أفقا بعد كلّ رحلة صيد.

وغدا أدونيس شابًّا وضّاءَ المُحيّا، الصبح في جبينه وأشعّة السحر من عينيه، أشقر اللّون، ناعمَ البشرة، ذهبيَّ الشعر، ورديَّ الثّغر، تُغرِّد له الأطيار في مجيئه ورواحه بين مغارة أفقا والغينة على فم النهر المقدّس، وهو يثير لَهَبَ التدلّه في أحشاء الناظرين إليه من الآلهة الحسان. وكان مُتناسِق تقاطيع الجسم، أهْيَف القَدّ، ممتلئ العضلات، رشيق الحركات.

وكانت سانا زهرةً فتيّةً من أزاهير تلك الوديان، تتربّع على عرش الفتنة والجمال، طريّةَ العُود، باسِمة الثّغر، مُنوَّرةَ الخدّين، لَكأنّهما ورَقَتا وَرْد يُضيئها الخجل احمرارًا في تلك البقعة التي تنعم بوافر من الاخضلال والطيب، حيث البُطْم تتدلّى منه عناقيد قرمزيّة مُترنّحة سَكْرى من عطر البخور، والسنديان عنوان القوّة والعنفوان، والشربين شريكه في جلاله والأرز رمز الصمود والخلود، لا يُشارِكه في مَجْده شريك.

هناك، كان أدونيس وسانا يقضيان حياتهما من مكان إلى آخر، فَرِحَينِ بالحياة كفراشتينِ مغبوطتين بالربيع.

وكيف لا يُجَنّ جنون ديانا؟

أيُعْقَلُ أن تحتلّ إنسانة قلبَ أدونيس، فَيَمْحَضَها إعجابه وحنانه، بينما يُهْمِل الربّةَ، فلا تنال منه لفتةً واحدة؟

وكانت تقول: «بارحتُ سمائي وركضتُ وراءه ولاطفْتُه، فلم ألقَ منه سوى الصَّدّ. ما بالُ سِهام كوبيدون لا تَمَسّ فؤاده؟ لن أَدَعه بعد الآن. وسوف يرى ما في إمكاني أن أقومَ به!»

وارتدتْ ثوبَ ربّة الصَّيد على عجل، وانحدرتْ إلى الأرض، واعترضتْ طريقه:

ـ مَن؟ ديانا؟

ـ أيُسيئكَ أن نلتقي.

ـ لا، أبدًا.

ـ أنتَ تكرهني يا أدون.

ـ أكرهكِ لِمَ؟ أنا لا أُضمِرُ الحقدَ والبغضاءَ لأحد، فإنّهما يُحرقان صاحبهما. ماذا تبغين منّي؟

ـ كلُّ ما أطلبه أن تقدِّرَ مَودّتي لَكَ.

ـ ومَن قال لكِ عكس ذلك؟

ـ تصرّفاتكَ معي.

ـ ماذا تريدينني أن أفعل؟

ـ دَعْ سانا لشأنها.

ـ هذا ما لا أستطيع، فقد ارتبطتُ مع سانا بعهد لا يحلّه غير الموت.

وغضبتْ ديانا وما عادت تعرف ماذا تقول، ويئستْ من عناده وإصراره.

ـ اِسمع يا أدون. إن لم تنفّذْ أوامري وتسمع نصحي...

ـ أتُهدِّدينني يا ديانا؟ إنّ الآلهة لا تُضمر الحِقد ولا تفكِّر بالشرّ. اِفعلي ما يحلو لكِ، فالموت أفضل عندي

من القيام بعمل لستُ مُقتنِعًا به.

★ ★ ★

وخلعتْ ديانا ثوبها البشريّ وطارت إلى الأولمب وهي تُهدّد أدونيس بسوء المصير.

٩

قصدتْ ديانا أباها زفس وأخاها أبولون. ولـمّا بَدَتْ أمامهما، قال لها والدها:

ـ أراكِ يا ٱبنتي مُضطرِبة غاضبة، فماذا دهاك؟

ـ أين عشتروت؟

ـ ألا تعرفين بأنّها هجرتْ سماءها منذ زمن طويل، وأهلَتْ أرض لبنون؟

ـ إنّها لا تزال تُطارِد أدونيس الذي أَهْملها في سبيل فتاة راعية ابنة راعٍ من لبنون. كيف تتحمّل هٰذا الأمر؟ أتعتقد يا زفس بأنّها تتخلّى عنه وتساعدني في الانتقام منه؟

ـ نصيحتي لكِ أن تتناسيه، فالاقتصاص منه لن يُجديك نفعًا. اِصغي إلى صوت عقلِك لا إلى صوت عاطفتكِ.

ـ أريد أن تموت سانا على الفور بلدغة حيّة سامّة.

وظهرت عشتروت فجأة، وقالت:

ـ ما شأن سانا في الأمر؟ إنّها فتاة بريئة. دونكِ وكوبيدون، فهو الذي أخطأ في توجيه سهامه إليّ وإليكِ.

ـ ماذا أفعل إذًا؟ أريد أن تموت سانا.

وكان هَمُّ عشتروت أن تحوِّل غضب ديانا عن أدونيس.

ـ رأيي أن تُحوّلي الفتاة حمامةً تُتركُ لها الحياة لِتُقاسِيَ مرارة العذاب والحرمان التي قاسيناها.

وقال أبولون:

ـ نِعْمَ الرأي.

★ ★ ★

وانصرفت ديانا حزينة، وكأن الحلَّ لم يُرضِها. ولٰكن ما العمل؟ يجب أن ترضخ لإرادة والدها.

وما هي سوى أيّام حتّى حنَّتْ ديانا إلى الأرض. وعلى رغم قرار اتّخذتْه بالانقطاع عن مثل هٰذه الزيارات، شعرَتْ بحاجة مُلِحّة تدفعها إلى الانحدار إلى الأرض لترى ما حلَّ بسانا.

لماذا تشعر بالسواد يغمر قلبها؟

أليس ما قامتْ به حقًّا من حقوقها؟

هل أدونيس حزين؟ هل يتألّم لفراق صديقته سانا؟

وسمعتْ هاتفًا يهمس في أذنها: «لا عليكِ يا ديانا. كوني قاسية الفؤاد ونفِّذي قراركِ في حقّه. لا يستطيع أحد أن يُحاكِمكِ يا سيّدة البراري وحاضِنة أعشاش الطيور.

«هل هٰذه هي المرّة الأولى التي قسوتِ فيها؟ ألا تذكرين يومَ مَنَعْتِ الأسطول الإغريقيّ من الإبحار إلى طروادة ما لم يُضَحِّ بعذراء من عذارى سبارطة على مذبحكِ؟

«ما بالكِ تتخاذلين؟ اِحزمي أمركِ واضربي ضربتكِ، فمن يخونكِ لا يستحقّ الرحمة.»

وبينما هٰذه الأفكار تتضارب في رأسها، رأت أدونيس يسير متباطئًا حزينًا، تُرفرِف فوق رأسه حمامة بيضاء، تتوقّف حين يتوقّف وتُلاحِقه حين يمشي وتحطّ على كتفه إن جلس.

فقالت في نفسها: «هٰذه فرصتكِ يا ديانا! هٰذه سانا فَقَدَتِ النُّطْق، ولٰكنّ فؤادها ما زال عالقًا بأدونيس، فهي تَهْدُلُ له بصوت حزين ولا تسأم».

(ويُقال إن الحَمَام كان يجهل قَبْلها الهديل).

وثار ثائر ديانا، فأطلقتْ كلابها السّتّة والثلاثين على سانا التي طارت وحَطَّتْ على أعلى شجرة سنديان وهدلتْ نائحة. وخُيِّل لديانا أنّها تقول: «يا نسمة الحياة المُنعِشة، صرتُ بِقُربكِ ريشة في مَهبّ الرِّياح، لا يَقِرُّ لها قرار وتبدّدتْ فيها الآمال والأحلام.

«يا شهبًا أزرق، حمّلتكَ أوْصابي وحزني ووِزْرَ مصيبتي.

« أثرْتَ آلامي يا أدون.

« صورتكَ رأيتُها في نقاء الثلج المُنهمِر على قِمَمِ الجبالِ الشوامخ.

« في جَمال الأرز، رمز الصمود. في فتنة الصخور. في شُرود القمر. في نضارة الربيع واصفرار الخريف. في عنفوان الأمواج. في رحابة البحر.

« صورتُكَ ارتسمتْ في كلِّ جَمال. تغلغلتْ في روحي. سَرَتْ في شراييني، وتعيش معي وتُحييني.

« من أناملكَ شربتُ الدفءَ. من أطراف عينيكَ اختزنتُ النور، ومن عبير كلِّ ما لَمَسَتْ يداكَ نَهَلْتُ أفراحي وسعادتي.

« فرغ خيالي من الذكريات. تساءَلتُ هٰذا المساء ككلِّ مساء: صورتُكَ، أيُّ قدرة تقوى على إزالة خطٍّ من خطوطها من روحي؟

« الموتُ؟ كلّا! إنّها خالدة بخُلود الأبد، صورتُكَ الحلوةُ، وتحوَّلتْ شعلةً مُقدَّسة لن تمتدّ إليها أصابعُ الفناء مهما قستْ. إنّها أقوى من الفناء وأقوى من القدر.

« الجسد إناءٌ، والحياة عبور، وصورتُكَ بقاء.

« عزائي أنّكَ حيٌّ. عزائي أن يبقى صوتُكَ في أذني، ينقر على أوتار فؤادي لحنًا شَرودًا، فأتيهُ معكَ وحيدة على الدروب.

« قد نلتقي يومًا في دنيا الخلود، ونسير معًا، كَفّي بِكَفِّكَ، نتحدّى الآلهة ونشرب كوثر الخلود، فقد شبعْتُ مِن تافهِ هٰذا الوجود.»

★ ★ ★

شعرت ديانا بغصّة في قلبها كادتْ تخنقها. « لا لن تعرفَ الرحمةُ قلبي. لن أتمكَّنَ من صداقتها إلّا إذا قضيتُ على أدونيس!»

★ ★ ★

وأدركتْ عشتروت أنَّ هٰذه الربّة لا تزال تُضمِرُ الشرَّ لربيبها وستنفِّذ وَعيدَها. « نَفْسي حزينةٌ لحزنِكَ يا أدون، كيف أرُدُّ عنكَ ضربات الكَيْد؟ كيف أُنجّيكَ من براثن هٰذه الذئبة الحقود؟ يجب أن أُلازِمَكَ في رَوْحاتِكَ وغَدواتكَ، وأُبعدَ عنكَ الوحوش.»

وبلحظة خاطفة كانت تقف إلى جانبه، وتناديه:

ـ أدونيس!

ـ ماذا تريد عشتروت؟

ـ ما للحزن ينبعُ من عينيكَ؟

ـ أنا لستُ حزينًا. أنا متمرِّدٌ على نواميس الآلهة الجائرة.

ـ لا تَدَعِ اليأسَ يسيطر عليكَ.

ـ اليأس! ما اليأس؟ اليأس خروج على إرادة الحياة. إن تمكَّنَتِ الآلهة اليوم من تغيير صورة الجسد، فهل تعتقد بأنّها نالت مُبتغاها؟ لقد ظلمتْ ديانا سانا البريئة، ولكنّها لم تقضِ عليها، فهي حيّة في قلبي، حيّة بجوهر فيها، وخالدة بخلود إيل. إيل المُحِبّ المُمجَّد. إيل النقيّ. إيل الرحوم.

ـ اِسمعني الآن: أُريد أن أُكلِّمَكَ. جئتُ أرجوكَ أن تُقلع عن الصيد.

ـ وهل أرهب من الموت؟

ـ لا أُريدكَ أن تموت.

ـ أنتِ أنانيّة تحبّين نفسكِ من خلالي.

ولم يطمئنَّ قلبُ عشتروت، فصمتتْ على مَضَض وابتعدتْ عنه. ولم تكن المَخاطِرُ التي تُحيقُ به خافية عليها، فدبَّتِ الوساوس في نفسها لأنّها تعرف بأن لا الأخطار ولا ما هو أعظمُ منها تُخيفه.

★ ★ ★

أصمَّ أدونيس أُذنيه عن سماع أيّ نُصْح، وخرج ذات يوم من مغارة أفقا، وراح يتنقّل في جوارها، فسمع كلابًا تنبح نباحًا يشبه العواء.

لا شكّ في أنّها كلاب ديانا الستّة والثلاثون تثير عليه الضواري.

ماذا يفعل؟ أينسحب من المعركة؟ أيبتعد ويترك الأرض ميدانًا للشرّ يعبث فيه فسادًا؟

كلّا. لن يتراجع. حتّى لو كان عليه أن يُقارع أبولون نفسه.

ورفع عينَيه إلى السماء، وقال:

« يا إيل!

« يا مَن علَّمْتَني أن أكون متفائلًا!

« يا سيّد لبنون!

« يا مَن قُلْتَ بالمحبّة بين الناس، ونشرْتَ مبادئ العدل والخير!

« يا مَن أُعطِيتَ أن تُحارِب العنف بالسلام والكره بالمحبّة، والشرّ بالخير، أنا قويّ ما دام نورُكَ يبدّد ظلامَ كهفي ويُسهّل سُبُلي. أعطني أن أنتصر على وحوش الشرّ.

« أرضي سأرْويها بدمي وأُطعِمها جسدي.

« أرضي، يحلو فيكِ العيش بعد أن يجلوَ عنكِ الحقد والبغضاء والقتل.»

اِتّجه أدونيس إلى مصدر النباح. وما إن وصل حتّى رأى الكلاب تهاجم خنزيرًا بَرّيًا ضخم الجثّة، غزير الوبر، قبيح المنظر، وسمع همسًا يتردّد في أذنه:

ـ لا يا أدونيس.

وحطّت الحمامة البيضاء على كتفه.

وتّر قوسه ووَجّهَ إلى الحيوان سهمًا أصاب منه الرأس فآلمه ولم يقتله بل زاده الألم شراسة. وأطلق سهمًا آخر. وبينما كان ينتظر أن يسقط الحيوان ميتًا، إذا به يَثِبُ عليه غاضبًا ثائرًا، وينطحه في صدره، فهوى أدون إلى الأرض مُصابًا بجرح ثخين سالَتْ منه دماء غزيرة.

وسمعت عشتروت أنينه، فهرولتْ إليه ترافقها حوريّات الأشجار والأنهار، فكلّمهنّ قائلًا:

« لا تحزنَّ يا صديقاتي، ولا تَنُحْنَ، فسأكون معكنّ دائمًا. أُرقصنَ وافرحنَ، فلن أموت ما دُمْتُ في قلوبكنّ.

« وأنتِ، يا سانا، هٰذا يوم عرسكِ. قومي وارتدي ثوب النقاء. لا تحزني ولا تبكي. هٰذا مصيري. وداعًا يا أرض بلادي.»

بكتْ عشتروت والحوريّات، وهدلتِ الحمامة هديلًا حزينًا. وأغمض أدونيس عينيه، وغفا غفوته الأخيرة.

وصاحت عشتروت باكية:

« لا تتركني أيّها القاسي! على الأقلّ تَظاهَرْ بأنّكَ تشعر بوداعي المحزون.

« أُنظر بأيّ ألم أُصبتُ.

« ويلاه! لقد مات وبات لا يسمع نواحي.

« إنّ ليلًا أبديًّا يُكْرِهُه على تَرْكي، فلا دموعي ولا تنهُّداتي تستطيع مَنْعه من مُبارَحة الدنيا. وليتني أقدر على أن أتبعه إلى حيث هو.

« أيّها القدر الغاشم، إذا شئتَ أن تراه يفنى سريعًا، أترى من الواجب إكراهي على أن أموت أبدًا؟

« يا عشتروت التعيسة، ماذا تفيدُك الدموع؟ تبجَّحي الآن بسلطتك! إنّها لم تستطع أن تعصم أدون من الموت.

« الوداع، يا صاحب النَّفس الجميلة.»

وصمت صوت الهديل، فقد ماتت الحمامة البيضاء.

ورفعت عشتروت عينيها إلى السماء ونادت زفس وإيل وطلبت منهما أن يعطياها كوبًا من كَوثر الآلهة. واستَجابا لطلبها، فتناولته منهما وسكبتْ ما فيه على

جسد أدونيس البارد، وإذا بالأرض تنبت زهورًا بِعَدِّ رمال البحر، حمراء كالدم، حانية الأعناق كأنّها حزانى، دقيقة الساق: تلك كانت شقائق النعمان.

والتفتَتِ الحوريّات إلى ناحية النهر الذي يتدفّق من مغارة أفقا، فوجدْنَ أنّ مياهه قد اصطبغت باللون الأحمر حزنًا وأسًى على وفاة أدونيس، فانتشرتَ في الحقول والغابات، وجمعْنَ أغمارًا من النسرين والزنبق الأبيض وأغصان البطم والغار وأَقَمْنَها سريرًا وضَعْنَ عليه أدونيس والحمامة البيضاء رفيقته المخلصة.

وسجدتْ عشتروت إلى جانب سريره وضمّته إلى صدرها بلهفة في مُحاوَلة لإرجاعه إلى الحياة. وكادت تنجح، لكنّـه كان قد وصل إلى العالَم السفليّ حيث يقيم، فنهضتْ عشتروت باكية وتركَتْهُ في هَجْعته الأبديّة، وقصدَتِ العالَم السفليّ. وما إن وصلت ورأتها برسيفون حتّى أدركتْ تلك الأخيرة مقصدها، فبادرَتْها بِقَوْلها:

ـ ما بالكِ يا ربّة الجمال مُقبِلة إلى عالَم لا يدخله الخالدون؟

ـ جئتكِ في أمر يُهمّني.

ـ كُلّي آذان صاغية.

ـ أطلبُ منكِ إطلاق أدونيس.

ـ يصعب عليّ أن أمتنع عن استجابة رغبتكِ هذه.

ـ ولِمَ؟

ـ أودُّ أن أسألكِ هل مات أدونيس أم لا؟

ـ لو لم يَمُتْ لما رأيتِني.

ـ هل سبق أن دخل أحد عالَمي هذا، وعاد منه إلى الدنيا حيًّا؟

ـ اِرحمي شبابه و...

ـ لا.

ـ أستحلفكِ وأرجوكِ أن..

ـ لا. إنّ مَنْ يَصِلُ إلى هذه الأبواب لن يعود أبدًا إلى الدنيا.

وطال نزاع الربّتينِ ويئستْ عشتروت من إقناع

برسيفون بالإفراج عن أدونيس، فنظرتْ إليها نظرة حانقة غَضْبى، وطارت إلى سماء الأولمب حيث جوبيتر كبير الآلهة، ورفعتْ إليه دعواها.

خشيتْ برسيفون من أن يرقَّ قلب كبير الآلهة ويستجيب لطلبها، فقصدَتِ الأولمب قبل أن تُنهي عشتروت كلامها.

وبعدما سمع جوبيتر أقوال الاثنتين، قضى بأن يبقى أدونيس طيلة الخريف والشتاء في العالَم السفليّ راقدًا، على أن يعود إلى الأرض كلّ ربيعٍ وصيف. ومنحه حقَّ الإشراف على تَجدُّد الطبيعة.

★ ★ ★

وهكذا مع بدء كلّ خريف تتخضّب مياه النهر الذي اتّخذ اسمه تخليدًا لذكراه باللّون الأحمر القاني. ومع إطلالة كلّ ربيع تَنبت من الأرض وتتفتّحُ زهور شقائق النعمان التي تُبشِّر بعودة الحياة والدفء إلى الأرض.

وقد علمتْ بيبلس بما جرى لأدونيس، فلبستْ ثياب الحداد واجتمع الأهلون من كلّ أنحاء البلاد موكبًا

عظيمًا اتَّجه إلى حيث كان. وأقاموا له مناحـة عظيمـة، وبكوه بدموع سَخيَّة وضرعوا إلى إيل من أجله ليُعامِله بالرحمة، ثمّ أقاموه ربًّا على مدينتهم، وقدّسوا الأرض التي أحبّها، وغنّوه ورقصوا له طويلًا قبل أن يحملوه إلى مغارة أفقا مَثْواه الأخير، حيث أَوْدعوه التراب بين أزاهير الحقول.

★ ★ ★

وكان الورد الأبيض يكثر في جوار نهر أدونيس، وعشتروت تمشي ساهمة في موكب الجنازة وتدوس غصونه، فمزَّقتِ الأشواك رِجْلَيها، فسالَتْ دماؤها على الأكمام البيضاء لِتُبَدِّلَ لَونها أحمرَ قرمزيًّا. ومنذ ذلك اليوم، عُرِفَ الوردُ الأحمر في الدنيا.

وكانت عشتروت تبكي نائحة، وهي تُردِّد بصوت حزين:

« بارَحْتني يا عَذْبَ الصوت! يا مَن تَفوقني ثلاث مرّات جمالًا، ولم تَعُدْ...

« ناديتُكَ، فلم تسمعني لأن برسيفون تمنع وصول

صوت نواحي إليكَ.

« ناداكَ قلبي المكلوم وجَوارحي المحزونة.

« نادتْكَ أَدْمُعُ محجري السخيّة.

« ناداكَ صوتي الخاشع.

« نادتْكَ روحي المُعذَّبة، فلم تسمعني...

« بارَحْتَني، فرأيتكَ كالفراشة تطير، وعند الأفق البعيد اختفيتَ!

« اِشتقتُ إليكَ اشتياق الأزاهر إلى الندى، وبراعم الزنبق وشقائق النعمان إلى التفتّح؛ اِشتياق الغصن إلى قِشْره، والروح إلى الجسد، والبحر إلى الشاطئ، والساحل إلى الجبل، والعاقر إلى الحمل.

« شوقي إليكَ يا أدون كَيَأْسي منكَ.

« في كياني رَفْضٌ لِقَدَري وليس لكَ، وإنّني أخشى عليكَ منّي.

« وعلى رغم وُعورة الطريق قطعتُ المسافة التي تفصل بينكَ وبيني، وخطوتُ في مآقي الليل.

« وكم أودُّ أن أُرافقكَ وأنحدر معكَ إلى العالَم السفليّ وأنسى ربوبيّتي، فهلّا استجبتَ أمنيّتي يا جوبيتر..

« وجهتي غدَتْ أنتَ.

« أسير، أركض لاهثة، فلا ألقاكَ، وأراكَ تنتصب فوق سيف الريح.

« يُرهِبني ظمأي إليكَ. أركض لأرتوي من ينبوعك، فلا أجد غير السراب، فأسخر من نفسي كالساري وراء ظِلّه: كلّما جَدَّ المسير، جَدَّ ظِلّه أمامه.

« وما إن يُطِلُّ المساءُ حتّى يختلط الظلّ بالعتمة وينطفئ الظلّ وتهمي من العيون كلُّ الأوهام والأحلام كأوراق الخريف الذابلة في سواقي الانتظار.

« وتمضي الأيّام سراعًا وأنتَ بعيد، ودمع البُعْد ينهمر، ونوافذ الحدقات تُقفل دونك، وأرى عينيَّ فارغتين إلّا من رَسْمكَ، فهل تعود؟ »

وُورِيَ جثمان أدونيس الثّرى، وناحَتْ قيثارات بابل عليه طويلًا..

* * *

لازمتْ عشتروت قبر أدونيس أيّامًا طويلة. وذات مساء جاهِم حزين، تجلّى لها أدونيس بكلِّ بهائه، فصاحت:

ـ أدون، هل عُدْتَ؟

ـ عشتروت، انسيني وعودي إلى سمائكِ التي تفتقدكِ. لقد غفرْتُ لكِ إساءتكِ إلى أمّي، وها قد عُدْتُ إليكِ راجيًا أن تُقلعي عن حزنكِ.

« وما دام جسدي إلى تراب، وَدِدْتُ أن أخبركِ بأنّني ساعة انحداري إلى الجحيم اجتزتُ بخطوة المتكبِّر عتبة القبر الباردة، حتّى لا يبدو للفانينَ ميت أجمل منّي. وحين تُستعاد ذكرى صورتي المتنائية بشريّة كانت أو فوق بشريّة، وَهْميّة أو حقيقيّة، تحلم عذارى بيبلس وصيدون وصور بأن يَسِرْنَ في موكبي الذهبيّ إلى الشواطئ المُعْتِمَة التي تحوم عليها الأطياف الشاحبة. والشُّعراء المُلهَمون الذين لا يُؤْمِنون بغير الحلم، يجهدون ليتغنّوا في شعرهم برزيئتي على قيثاراتهم المُجنَّحة، باذِلينَ قواهم في إذاعة اسمي على كلّ ريح.

« وهكذا، منذ نمتُ نومة الأبد كاسِفَ اللّون مُشوَّهًا مُتجلّيَ الصورة، تُمجّدني أناشيد الحوريّات، وتبكي عليّ شبّابات الرعيان، وتغمرني الطيوب والأشعار المُتعالِية حتّى النجوم المُنطفِئة.

« وأكون لِضِيق جسدي عن استيعاب روحي، قد خلعتُ ثوبي البشريّ وأنا مُكلّل بالنّضَر وفي يدي سُعْفَةُ نخل وجثماني مُكفّن بالأرجوان تحت أرزة أبديّة الاخضرار.

« وها إنّني خَلَعْتُ ثوبي البشريّ هاربًا من عالَم الباطل والأضاليل لأصير إلهيًا.»

★ ★ ★

اِنحلّ جَسَدُ أدونيس البشريّ، وتحوّلتِ الشعلة الخالدة التي كانت تتّخذُ منه مسكنًا لها إلهًا.

★ ★ ★

وظلّت بيبلس أحقابًا طويلة من الزمن تتعبّدُ له، وتُنظّم كلّ سنة في بدءِ الخريف المسيرات الكبرى إلى

مغارة أفقا حيث يرقدُ، وتقيم عند قبره المناحات ويتبارى الشعراء في رثائه.

وكانت شقائق النعمان والورود الحمراء تفتح أكمامها القرمزيّة والأرجوانيّة على قبره وتتأرجح حزنًا. وما زالت مياه نهر أدونيس تلبسُ ثوبها الدّمويّ الأحمر حتّى اليوم مع بدء كلّ خريف، بينما تُنشد الحوريّات:

يا إلهَ الجمالِ والحبِّ والسِّحْرِ حلالا
ويا حَبيبَ العَذارى
« جاءَكَ الكَوْنُ ساجِدًا وتَمَنّى
لَوْ يَصيرَ الجمالُ رَبًّا فَصارا
مَسَحَ اللّيْلُ خُصْلَتَيْهِ بِعَيْنَيْكَ
مِرارًا حتّى أغارَ النَّهارا
والنُّجومُ الزَّهْراءُ في جَبْهَةِ الشَّرْق
تَمَنَّتْ لَوْ أصْبَحَتْ لَكَ دارا
وتَمَنّى الشَّقيقُ في كُلِّ وادٍ
لَوْ تَمَلّى مِنْ وَجْنَتَيْكَ احْمِرارا
وتَمَنّى الحَمامُ في كُلِّ طَوْق
لَوْ تَهادى عَنْ جانِبَيْكَ وطارا

وتَمَنّى الغُصْنُ المُصفِّقُ لَوْ سـارَ

صَبـاحًـا إلى حِماكَ، فَسـارا

أَنْتَ يـا جَمْـرَةَ القُلـوبِ عَلى الشَّوْق

ويـا قُبْلَـةَ الهَوى كَيْـفَ دارا

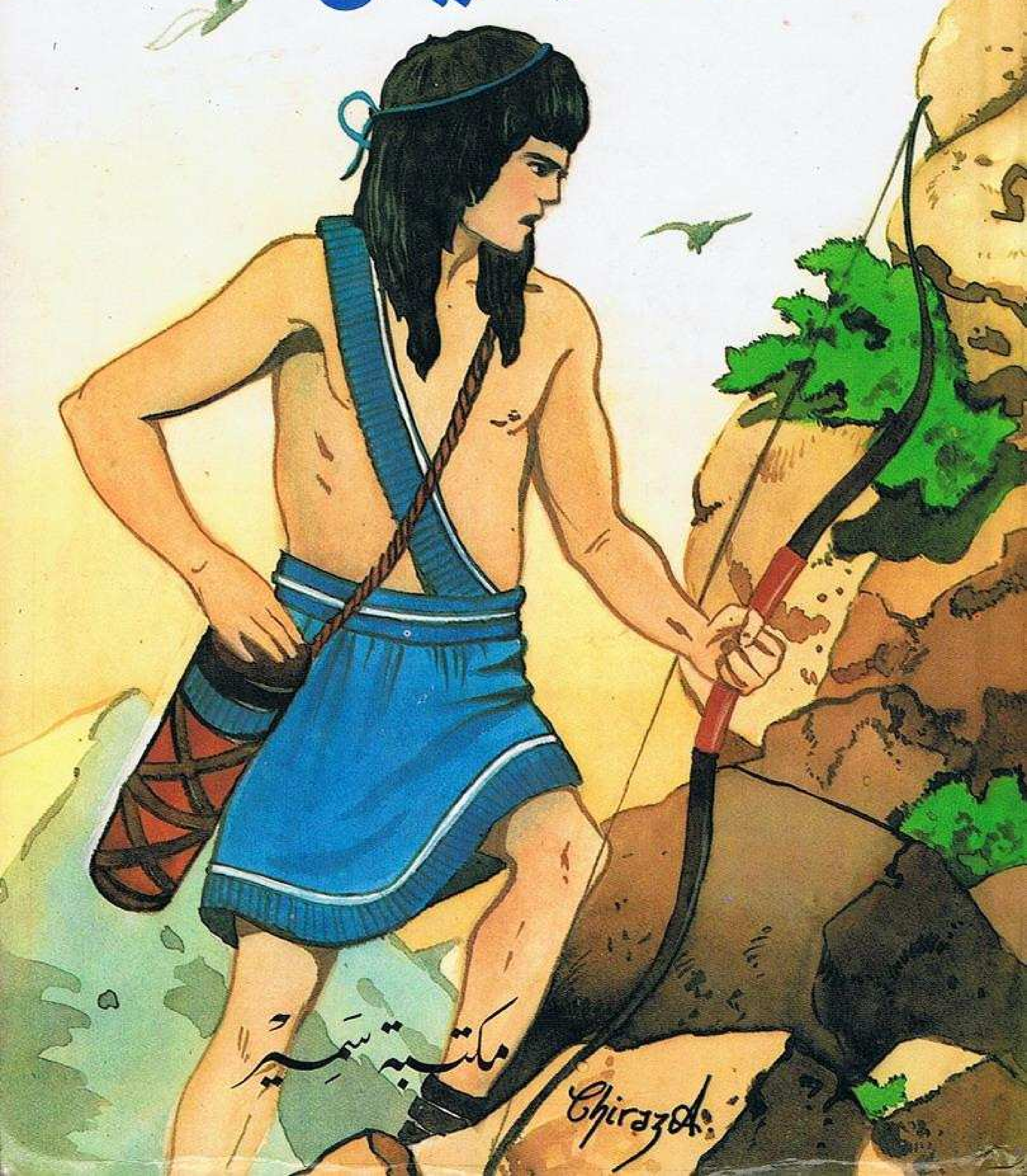
جَعَلـوا الشِّعْـرَ في جَمالِـكَ غَمْـزًا

والقَـوافي المُـؤَنَّثـاتِ سِتارا(★)

(★) من قصيدة الدكتور حبيب ثابت: عشتروت.

سلسلة «من بحر الزمن»

أدونيس



مكتبة سمير